أدب النفس

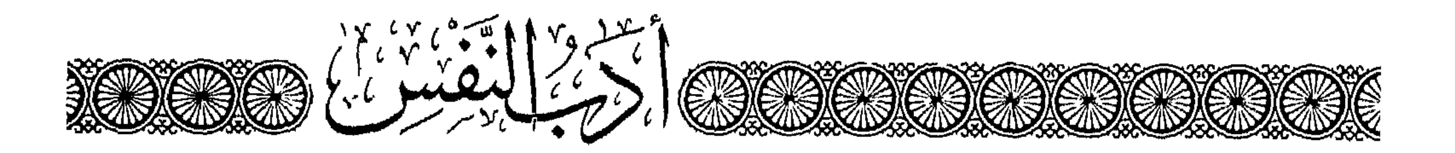
للإمام أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي

تحقيق وتعليق

دكتور أحمد عبد الرحيم السايح

صالح وحيد

الدار المصرية اللبنانية


أدب النفس

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس. ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX. 3909618 CABLE DARSHADO

أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠هـ

تحقيق وتعليق
الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ .

[سورة الشمس – الآيات من ٧ – ١٠]



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، دعا الناس إلى تهذيب النفس ، وإصلاح شأنها ، والصلاة والسلام على رسولنا الصّادق الأمين الذى نصح الأمة ، وعلمها مكارم الأخلاق . وبعد .

فإن الحافظ والمحدث الإمام الحكيم الترمذى كان من علماء الأمة الذين نبهوا إلى أدب النفس ، والعروج بها إلى مراقى الفلاح . . لقد كتب الحكيم الترمذى عن « مكر النفس » فى كتابه : « منازل العباد من العبادة » .

وبما أننى أعددت رسالة العالمية « الدكتوراه » فى موضوع « السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية » كان لابد من التعرف على جميع تصنيفات الحكيم

الترمذى ؛ ولذا كان لابد من مراسلة المكتبات المختلفة فى بلاد الدنيا للحصول على نسخ مصورة من المخطوطات التى ألفها الحكيم الترمذى .

والكثير مما ألفه الحكيم الترمذى يعالج قضايا النفس ، ويتتبع كل شىء فيها ؛ ولذا جاء كتابه « أدب النفس » يمس أخص الخصائص فى النفس الإنسانية .

ولقد كان الحكيم الترمذى عالمًا من علماء السنة ، وراويًا من رواتها ، وحملتها ؛ ولذا جاءت كتاباته عن أدب النفس ، تتميز بالأصالة وتنطلق من معالجة القرآن الكريم والسنة النبوية .

ولا يخفى على أيِّ قارئ وباحث أن أدب النفس ضروريٌّ لمن أراد أن يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأخلاق القرآن الكريم ، ويتأسى بالرسول محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب – ٢١] .

وإذا كان أدب النفس ضروريًّا فإن الحكيم الترمذى – وهو عالم من علماء القرن الثالث الهجرى – شغل نفسه بأدب النفس ؛ ومن ثم زخرت حياته بالاشتغال به ، وترك مؤلفات كثيرة تأخذ بالنفس الإنسانية إلى المسار الصحيح ، وتقدم للإنسان النصح الجميل ، وترسم له طريق المجاهدة ، والتَّريُّض ؛ ليخلص الإنسان إلى عبودية الله سبحانه وتعالى ، فيتحرر الإنسان من الخوف ومن الأسر ، ويبقى خالصًا لله عز وجل . .

والأمة الإسلامية – وهى تتطلع إلى غد مشرق ، ومستقبل زاهر – جدير بها أن تسعى إلى تطهير النفس مما علق بها ، حتى تتأدب النفوس وتتهذب ، وتصبح راضية مطمئنة .

والنفوس الطاهرة العفيفة ، التى تأدبت بأدب القرآن الكريم ، وتأست بأخلاق الرسول ، صلى الله عليه وسلم – تستطيع أن تشق الطريق ، وتضع العلامات المضيئة فى الطريق .

المؤلف

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

أدب النفس

للإمام أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى

« رب يسر وأعن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ، وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مرددًا على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم فى غيبه ، فأنبأنا فى تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] .

فأعلمنا لما خلق ، فقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3] يعني نُوَحِّد ؛ لأن فى

(١) سورة الجاثية ، معظم الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٥٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، جزء من الآية رقم ٥ .

توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة[1] وإضافة الأشياء إليه ، فهذه الكلمة تنتظم المدح .

وأباح ذكره على كل حال ، تقديمًا له على سائر الحالات ، وأعمال البر ، وحصر ما سواه من الأفعال فى أوقات مخصوصة ، مع ما ذكر فى الكتاب ، وجرت به الأخبار عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم بتفضيل الذِّكر على سائر الطاعات ؛ لأن فى الذكر مدحه .

وجاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما أحد أحب إليه العُذْرُ من الله تعالى ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى جده** » حدثنا بذلك الجارود قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغْيَرَ من الله عز وجل ، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش** » .

---

(١) وإياك نعبد ، أى نقر لك بالعبودية وحدك لا شريك لك .

وندب العباد فى غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره[1] ، ويذكروا عنه جميل صنائعه ، فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2] فى كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفى كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره .

ودعاهم إلى توحيده ، فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4] أى وحدون .

لأنك لا تكون له عبدًا حتى يكون لك ربًّا ، لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو وإن كان

---

(١) الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يستطيع الإنسان أن يحفظ ما يعنيه من المعرفة وهو كالحفظ ، إلا أن الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه ، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء ، القلب أو القول « الفيروز ابادى ، وبصائر ذوى التمييز جـ٣ ص٩ » .

(٢) سورة الأعراف ، جزء من الآية ١٨٠ .

(٣) سورة النحل ، جزء من الآية رقم ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٥ .

له عَبْدًا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يُصَيِّرْ نفسه عبدًا ، فيكون قد وَحَّدَه وعبده ، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو مطيع لله .

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبًا وقولًا وفعلًا . فمن قبل ذلك منه جُمْلَةً ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما فى ضميره ، وعزم على الفعل مائلًا له ، فقد آمن به ، وهذا كله من العبد فى وقت واحد ، فركّب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم[1] ، ويغوصون غوص النون فى البحر[2] .

وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه .

---

(١) يؤيد هذا حديث : « **إن الشيطان ليجرى من أحدكم مجرى الدم فى عروقه** » .

(٢) النون : الحوت .

فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين له العدو ، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذى يخيل إليك فى الظاهر أنه لم يؤمن بعد ، فهو موحد بالقلب واللسان .

ولكن تغلبه الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ، ووسوسة هذا العدو والتزيُّن غلب على القلب ، لا على ما فى القلب ، مِمَّا فى القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ، ولكن صار مأسورًا مقهورًا ، وهو أبدًا لمن غلب عليه وقهره .

فخلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق السمٰوات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ، والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشياطين ، والجبال ، والبحار ، والدواب ، والأقوات ، والمعايش ، وسائر الخليقة .

ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله ، وكرَّم بنيه ، وحملهم فى البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلًا ، وسخر له ولذريته ما فى السمٰوات والأرض ،

واستخرج ذريته من ظهره ، وأخذ عليهم الميثاق[1] ثم ردهم إلى صلبه ، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ليعبدوه ، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق ، بألا يشركوا به شيئًا ، إلى آجالهم التى كتبها فى المقادير ، إلى أن تنقضى مدة الدنيا ، فيبعثهم للجزاء ، وتُبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وليجزى كل نفس بما كسبت ؛ ليكونوا فريقين : فريقًا فى الجنة ، وفريقًا فى السعير .

فمن نَوَّرَ الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين ، فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت ، وأيقنت ، وَائْتَمَنته على نفسها ، فرضيت لها به وكيلًا ، وتركت التدبير عليه .

فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش لم يضطرب قلبه و لم يتحير ؛ لأنه قد عرف ربه أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رءوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل

---

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين** ﴾ [الأعراف . الآية ١٧٢] .

لا يجور ، وأنه عزيز لا تمنع منه الأشياء ، وأنه يُجِيرُ ولا يُجار عليه .

فكما خلقه محتاجًا مضطرًّا ، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيئة التى يريد الرب ، لا على الهيئة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرَّب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد(١) .

فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا ، إيمانًا به ، وقبولًا له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقت الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان فى قلوبهم سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقربه منهم ، وقدرته عليهم .

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قال الله عز وجل : عبدى أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلَّا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك فيما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد** » .

فهذا شأن الرزق والمعاش . وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه ، واتخذوه وكيلًا ؛ لأنهم عرفوا[1] بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم ؛ لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم أنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكًا قادرًا قاهرًا ، يفعل ما يشاء ، وقد سبق علمه فيهم ، مما يكون فيهم ولهم وعليهم ، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه فى اللوح المحفوظ ؛ ليكون أوكد فى قلوب العباد ؛ لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدرى كنهه ، واللوح قد خط بالقلم ، فيه أمر محدود ، وشخص مخلوق ، ويدرك بالقلوب معاينة .

فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح ، وأثبت مقاديرهم فيه ، لا لحاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ، لتسكن النفوس ، وتستقر على ما جرى القلم به .

فإذا سكنت النفوس تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب

(١) فى المخطوط : لمّا عرفوا .

فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ؛ لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبده ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت فى اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا ، وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ؛ لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتعبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين ذلك فى تنزيله ، فقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[1] أى من قبل أن تُخْلق تلك المصيبة .

ثم بين لما فعل ذلك ، فقال : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[2]،فإن التأسى على الشىء الذى لم يقدر لك فى اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المُعْطى ، حتى تأشر وتبطر بما تعطى ، فتهلك .

(١) سورة الحديد – جزء من الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الحديد – جزء من الآية ٢٣ .

وإنما المُبْتَغى منك فى ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح فى الموجود الذى أتاك بالأهل الذى أتاك ، ثم بفضله ورحمته عليك ، وإلى هذا ندبك فقال : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1] .

وقال تعالى فى شأن الرزق : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2] . ثم قال تعالى :﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3] . أى من يأكل تلك الحبة ومن يُرْزَقها .

فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين ، وغلبة الهوى ، وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يٰأيتها

---

(١) سورة يونس – الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة هود – الآية رقم ٦ .

(٣) سورة الأنعام – الآية رقم ٥٩ .

النفس لِمَ تضطربين ؟ قالت : لأنى محتاجة ، وخُلِقْتُ مضطرة ، ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقدارها ، واشتبهَتْ علىَّ كيفية أسباب وصولها إلىَّ . فقال لها : أيتها النفس إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتَكَفُّلُه أثبت عندكِ وأوكد وأقوى من الذى تُبْصِرِينَهُ على المشاهدة .

لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحورًا ، يرى أنه كذلك ، وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك .

فلو أبصرت الشيء الذى يحويه ملكك اطمأننتِ وسكنْتِ ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرأيتِ لو كان لكِ ديوان فيه غرماء مُمْلَاةٌ (١) أسماؤهم ، مكتوب فيه على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنت تطمئنين ؟

فإن وجدتها قد طابت وسكن اضطرابها ، لما وجدت فى الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشر

(١) فى المخطوط : ملاء . . والغرماء : الذين عليهم دَيْن .

عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد ، المنسوخ فى اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمٰن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فَقَلِّبْ أوراقه ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حين يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[1] .

ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدْتِ فى ديوانك على هؤلاء الغاوين ما وجَدْتِ وفرحت ، وأمنت الفقر فطبت ، فهذا فى المصحف قوله : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] أهذا أعظم شأنًا ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدتِ فى ديوانك ؟ أما تستحينَ أن تلقى ربك بهذه الحالة ؟

ولكنى قد فهمت لِمَ اضطربتِ ، بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنتِ تهربين من الذل ، وفيكِ شهوة ألوان الطعام ، فأنتِ تهربين من البؤس ، فيك شهوة إدارك المنى ، فأنت تهربين من فوتها ،

---

(١) سورة هود – جزء من الآية رقم ٦ .

(٢) سورة هود – من الآية رقم ٦ .

وإنما تضطربين لأنك أردتِ أن يكون رزقك فى وقت ، وأراد ربك فى وقت آخر ، واشتهيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردتِ من وجه راحةً ، وأراد ربك من وجه تتعبين فيه ، وأردت كثيرًا ، وأراد ربك أقل من ذلك .

فأصبحتِ وأمسيتِ مخالفة لربك فى مشيئاته وإراداته ، فحملك ذلك على الشهوة حتى غلبتك ، فرمتك فى أودية المهالك ، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأقذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعتِ حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام .

فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوتِ أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيتِ ظلومًا غشومًا ، ووعيد الله ينادى فى سمعك قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنبياء – الآية رقم ٤٧ .

فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ما هو ، وكيف يكون ؟ لو نجع[1] فيك هذا الوعيد لطارت منكِ الشهوات ، ومات منك الهوى .

فأهل الفهم راضوا أنفسهم ، وتدبروا فقالوا : كيف لنا بألا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا ؟ وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم .

فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج فى أنفسهم ، تحدثوا بها وتمنوها وطلبوها على التملك والاقتدار ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فلما فاتهم وجدوا الأسى والحزن ، على فوت ذلك ، فهموا أن هذا إنما دخل عليهم ، من أجل أنهم تمنوها وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فوجدت النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات وقطع المنى ، فخمدت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكلما بدا لهم أمر أو خطر ببالهم لم يتمنوا ، ولا أطمعوا أنفسهم ، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور فى اللوح السابق ، قبل خلق السمٰوات ، وسلموا لربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد .

(١) لو نجع فيك : أى أفاد ونفع . ويقال : ونجع فيه القول والخطاب والوعظ : عمل فيه ودخل وأثر [ابن منظور ، لسان العرب] .

فعاشوا فى الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة ، عند أنفسهم ، وأنعم بال ، وأقر عين ، بهذا الدين ، وماتوا بروح وريحان ، ولقوا ربًّا غير غضبان ، رضوا عن مولاهم فرضى عنهم ، فأيدهم فى الدنيا بروح منه ، وفى الآخرة قرَّبهم ولطف بهم : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] . أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، استنارت قلوبهم باليقين ، فصارت فى نوائبهم كالمعاينة .

كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ، أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرقت أبصار قلوبهم ، فأبصرت فى لحظة أن هذا الأمر قد كان فى اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من الشهوات ، ولا من الهوى ، من القوة ما يثقل عليهم قبوله من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة[2] وتلاقت النفس وبشر

---

(١) سورة المجادلة – من الآية رقم ٢٢ .

(٢) الهشاشة : الارتياح والخفة للمعروف . وأهش هشاشة ، إذا خففت إليه وارتحت له وفرحت به « لسان العرب » .

الوجوه ، فهم الراضون ، والصابرون ، قبلوا على كره ، من نفوسهم وجهد ؛ لأن شهواتهم حية قوية فى نفوسهم ويقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة . فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجد المرارات فى الأدوية ، فتمزج بالعسل والسكر ، وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منها .

وإنما تقع حلاوة صنع الصانع فى قلبك ، على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة فى الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، فهو إليك أحب .

ولذلك قيل : أشدهم حبًّا له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلى : « من عرف رَبَّهُ أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، رحمهما الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بُديل رحمه الله » .

فمن عجز عن الرياضة ، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته ، على حد الإيمان . وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه ، وتنغيص وتكدير من عيشه ، وجهد من قلبه ، ومن راضها وأدبها استقامت فى السير ، وانفطمت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والمدد ، وأنجز له الوعد .

فقد بين هذا الشأن فى آيتين من كتابه ، فقال : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1] فأمر بمجاهدة النفس وفطمها عن أخلاق السوء عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا ، ولو تركنا فى جميع أعمارنا لكان هذا أمرًا هائلًا عظيمًا . لكنه وعد فى آية أخرى أن يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويبصرنا ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] . فهو هاديك ، وهو معك فى النصر والتأييد ، فرحمته منك قريبٌ مِمَّنْ يقويك ومن يدركك .

---

(١) سورة الحج – من الآية : ٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت – الآية رقم : ٩٦ .

وإنما الشأن أن تجاهد فى بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثانى قد أنجزه لك ، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نورًا ، وكلاءة ورعاية ، حتى لا تزيغ ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة .

ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا :﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾[1]

والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضى بما يصنع بك ، فعلموا فى قلوبهم أنهم إنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ما قلنا فى شأن الراضى والصابر قول رسول الله ،صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : « **فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر ، فإن الصبر على ما تكره خير كثير ، واعلم أن مع العسر يسرًا ومع الكرب فرجًا** » . حدثنا بذلك على بن حجَر قال : حدثنا بذلك

(١) سورة إبراهيم – من الآية رقم ١٢ .

إسماعيل بن عياش ، وعيسى بن يونس ، قالا حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد بَيَّن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المنزلتين فى هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضى ، وأن الراضى باليقين أدرك ذلك ؛ لأنه عاين عواقب الأمور . وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئًا سواه ، فثار فى رأسه كالثيران من شدة الوجد لفقده ، حتى تبين ذلك فى أحواله ، وفى وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل مليءٌ ، وفيٌّ بَرٌّ صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم دينارًا ، فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره ، بمضى هذه المدة ، فهو يصبر على كره ، إلا أنه مازج بما أطمع فيه ، الوجد الذى فى نفسه فخف ما به ، وهو كاره صابر .

ورجل آخر افتقد كيسًا من دراهم ، وفى ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته ، فما تبين عليه فَقْدُ ذلك الكيس ، ولا يبالى به . وهو فى ذلك كالذى افتقد

فَلْسًا وعند كيس من الدراهم . فالأول هو غنى بالمال ، والثانى غنى بربه ومليكه .

فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثانى فرح بالله ، ثم بفضله ورحمته ، عامة ملجئه ومفزعه إلى الله عز وجل ، فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء والثانى سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قَلْبُهُ بالأشياء ، وبالأشياء تعلُّقه ، والثانى مشتغل بالله ، وإليه منيب ، وبه متعلق .

ومما يحقق عندنا حال هذا الثانى ، ما أتت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح ، من بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المرى ، عن حبيب بن محمد ، وهو العجمى رحمه الله ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، ولم يرفعه ، وأما غير ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : يا جبريل انسخ من قلب العبد الحلاوة التى كان يجدها به ، فينسخها من قلبه ، فيصير العبد وَالِهًا** » . .

فإن اعترض فى هذا القول معترض بالإنكار ، وقال هذا غير موجود فى الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يبكون فى المصائب ، ويحزنون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون فى المحبوب .

فيقال له : يا عاجز ، وما يدريك من أى شىء بكت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شىء فرحوا ؟ فرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ، ورب حزن ممدوحٌ أهلُه فى الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع فما فوقها ، كل نوع منها من شىء غير الآخر ، فهل ميزت بين هذه الأشياء ؟ وهل أُطْلِعْتَ مَطْلَع هذه المنازل ، أم أنت رجل اتبعت شيئًا من هذا العلم تفخر به ، وترأست به فأنت تريد أن تطفئ نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون[1] .

فأما فرح المتقين فبفضل الله ، ورحمته ، وعلى ذلك دل عباده ، وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه ، تبارك اسمه ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [سورة التوبة - الآية رقم ٣٣] . وقوله تعالى : ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ [سورة التوبة الآية رقم ٣٢] .

ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت فى بعض الكتب : « يا معشر الصِّدِّيقين تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم فى الدنيا نعمي ، وفى الآخِرَةِ جزاء » .

وقال فى حديث آخر : « آثرتمونى على شهواتكم ، ورضيتم بى بدلًا من خلقى ، فبى فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا ، فوعزتى ما خلقت الجنان إلا من أجلكم » . وحدثنا عبد الرحيم بن حبيب الفاريانى ، فى حديث له ذكره عن حبيب العجمى ، رحمه الله ، أنه كان يقول (ما) تفسيره : « يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، كونك لى ربًّا[1] وأنا عبدك : « خدايا عجب است ممكن إزشادى بميرم كف مراجو تؤاخذنى » .

وأما بكاؤهم ، فكانت الأنبياء عليهم السلام ، أرحم البرية ، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبة ، كانت له من الرحمة أكثر ، وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : « ما ازداد العبد من الله تعالى قُربة ، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره » . حدثنا بذلك الجارود بن معاذ

(١) فى المخطوط : « مثلك لى رب » .

رحمه الله ، عن علي وعمير بن عبد الله ، فكانوا فى المصائب يرحمون ، فيبكون ما يرون . وكانوا أعلم الناس بالموت ، وكنه مرارته ، وعِظَمِ شأنه ، وخَطَر المَقْدَم على الله عز وجل . فكانت قلوبهم ترق لما يرون .

ألا ترى أنه قال فى حديث إبراهيم ابنه : « **إنما هذه رحمة ، ومن لا يَرْحم لا يُرحم** » . فكان يبكى وبعد ذلك رحمة ، ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل .

ألا ترى أنه عاب من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ومن هؤلاء القوم فتنة وصبابة . وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوسف عليه السلام : يا بنى إنما حزنت عليك مخافة . وأيضًا من طريق آخر ، قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيج منهم أشياء ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفى هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه فى كتاب « صفة القلوب وأحوالها وهيئة تركيبها »[1] وما يتردد فى النفس فى صدور القلوب .

---

(١) كتاب صفة القلوب منه مخطوطة بمكتبة قسطمونى رقم ٢٧١٣ ، ومكتبة

رجعنا إلى ذكر « رياضة النفس » :

رياضة النفس

قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ وكيف يكون ذلك ؟
قال : يسيرٌ على من يسره الله ووفقه . فأما الرياضة فهى مشتقة عربيتها من الرضِّ ، وهو الكسر[1] ، وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن تعمل بهواها . فهى متحيرة ، قائمة على قلبك بالإمرة ، وهى الإمرة بالشهوة ، فيحتاج إلى أن يفطمها ، فإذا فطمها عن العادة انفطمت . ويقال فى اللغة : راض ، ورض ، بمعنى واحد ، فمن قال رضَّ ، فلما أدغم الألف فى الضاد شَدَّد ، ومن أبرز الألف خفف الضاد ، فقال راض ، فالرض الكسر ، فقيل فى الأشياء المكسورة رَضَّ ، وقيل فى الأخلاق المكسورة راض ، فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك ، ومنازعتك فى الأمور ، فإن النفس اعتادت اللذة

برلين رقم ٣١٣٠ ويقال إن النسخة التى كانت موجودة بمكتبة برلين فقدت أثناء الحرب العالمية الثانية .

(١) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ١٦٥٩ ، ط : دار المعارف بمصر .

والشهوة ، وأن تعمل بالهوى ، فإذا فطمتها عن العادة انفطمت ، ألَا ترى أن الصبى إنما اعتاد ثدى أمه ، كيف سكوته بذلك الثدى ، إنما يحن إليه إذا فقده ، وكيف يفرح به إذا وجده . فكذلك النفس الشهوانية ، فإذا فطم الصبى انفطم ، حتى لا يلتفت إلى الثدى بعد ذلك ؛ لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة ، فلا يحن إلى اللبن ، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين ، وروح قرب الله تعالى ، وحلاوة اختيار الله عز وجل ، وجميل نظره لها ، لم تحن إلى تلك الشهوات .

اليقين

قيل له : فبماذا يوجد اليقين[1] قال : بطهارة القلب ؛ لأن اليقين طاهر فيطهر مكانه ومستقره .

---

(١) قال المحققون : اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وفيه تفاضَلَ العارفون ، وتنافسَ المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وإذا تزوج الصبر باليقين ، ولد بينهما حصول الإجازة فى الدين ، قال الله تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ [سورة السجدة – الآية رقم ٢٤] .

قيل له : وما طهارته ، قال : ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه تورعًا ، دق أو جل ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات ، والاشتغال بها ، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك ، فصار لك مرآة بالتورع ، فكلما تفكرت شيئًا من أمر الآخرة ، تمثل ذلك فى مرآتك ، حتى تصير الآخرة لك معاينة ، فإذا منعت قلبك عن حريق الشهوات ، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك ، تمثل فى قلبك الملكوت ، حتى يصير أمر السمٰوات إلى العرش لك معاينة ، تبصره بعينى قلبك ، كأنك تنظر إليه ، كما قال حارثة ، رضى الله عنه : يا رسول الله . « كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **عرفت فالزم ، عبد نوَّرَ الله الإيمان فى قلبه** »[1] . فإذا صنت قلبك فصنه بعد ما ذكرنا عن النظر إلى نفسك إعجابًا وفرحًا ، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك ، وَصَفَا لك طريقك إلى الله عز وجل بلا غبار ولا غيم ، فلا يغان[2] على قلبك ،

(١) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف أيضًا .

(٢) يقال : غين على قلبه غينًا ، إذا تغشته الشهوة . وقيل : غين على قلبه =

فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت الله فى اليوم مائة مرة » .
وهذا الغَيْنُ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليس كما يجده مَنْ بعده فيما نعلمه ، فليس نراه من طريق التخليط ، ولا من طريق العيب ، فقد كان قلبه أظهر ، وشأن أمره أعظم وأجل من أن يُظَن به .

ولهذا الباب تفسير أوضح من هذا ، نبينه فى آخر هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى ، فى صفة القلب وخلقته وشرح اليقين ما هو .

[وإنْ] أردنا أن نَستَتِمَّ ذكر النفس ورياضتها عدنا إلى ذكر رياضة النفس ، ألا ترى أن البازى كيف كان نفاره من الأدميين فى الجبال الشامخات ، فلما رُبَّ وأُمْسِكَ على التربية ، أَنِس بصاحبه ، وأخذت التربية بقلبه ، واعتاد السكون معه ، فنزع عن النفار ، وترك هَمَّ الطيران ، واطمأن إلى صاحبه ، حتى إذا أرسله وحثَّه على الطيران طار ، فأصاد وأمسك عليه صيده ، تحريًا لموافقته مولاه ، ثم إن دعاه من الطيران رجع ، وآثر هواه على هوى موافقة نفسه ، فأجابه منقضًّا إلى حبله وسباقه .

= غطى عليه وألبس . وغين على الرجل أى غطى عليه « لسان العرب » .

أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمدًا وعبرة ، وأسفًا على فَوْتِ هذا من نفسه ، أن يكون طيره أسمع له وأطوع ، وأشد تحريًّا لموافقته ، وألزم لنصيحته من العبد المؤمن لربه .

ألا ترى إلى الدابة الخسيسة قيمتها قليلة ، تُؤخذ من الدواب وقد اعتادت الرعى حيثما شاءت ، كيف يروضها الرائض على قبول السرج واللجام ؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ السير ؟ وكيف يؤدبها عند القناطر ، وفى مواضع الجلبة . يريد أن يشيعها حتى لا تهاب هذه المواضع إذا بلغت ؟ وكيف تفتح أذنيها عند المسير ، وتميل يمينًا وشمالًا لا ينقلب عنانها ، فإن لم تجد قنطرة فأهوى بعنانها ، وثبت إلى الجانب وثبة مخاطرة بنفسها ، وإن استقبلتها جلبة لم تهب ، ولم تترك سيرها ، فتصير بحال تصلح لذلك ؟

فإن قُوِّمَتْ قُوِّمَتْ بالدنانير رفعة لها ، لا بالدراهم ، فتجلل وتبرقع ، ويصفى لها العلف ، وتربط فى مربط الملك ، فإنما بلغت هذا المبلغ ، وسقط عنها جهد العمل وكده ، وحمل أثقال الحمولات ، وتخلصت من دبر الظهر ، ومشقة الاستعمال .

فإنها تركت هواها ، ورفعت بالها عن نفسها ، فإن خاطرت لم تبال ، وإن أتعبت نفسها لم تمل ، وإن اقتضاها راكبها السير[1] والركض والوثب ، استفرغت مجهودها فى إعطاء كل ما يُبْتَغَى منها ، من غير جمح ، ولا حزن ، ولا تلكؤ ، ولا شمس ، ولا كسل ، ولا تركت أدبها . وقد كانت قبل ذلك هملًا فى الرعى ، تفعل ما هويت ، فهى قريبة القيمة من أشكالها من الدواب . وإنما اختصها الملك وأطاب علفها ، وصانها عن رؤية الناس ، وجللها ، وعزلها عن الجهد والكد ، بترك مراعيها وهواها ، ونشاطها ، وأنسها بأشكالها ، واحتمالها التعب فى جنب مالكها ، وإعطاء المجهود بالصدق من نفسها ، ويقظة قلبها ، ونظرها بقلبها إلى راكبها .

ولو كانت – إذا راضها – لم تنقد لمولاها ، ولم تأخذ سيرها ، ولم تؤدب بأدبه ، فإن سَيَّرَهَا أبطأت فى السير ، وإن مال بعنانها امتنعت وشَمَست[2] ، وإن مدها جمحت فمدت به ، وفى الموضع الذى كان يريد السير منها امتنعت

(١) فى الأصل : للسير ، واقتضى يتعدى إلى مفعولين ، تقول : اقتضاه دينه ، كما فى أساس البلاغة للزمخشرى .

(٢) شمست الدابة : شردت وجمحَتْ ومنعت ظهرها « لسان العرب » .

من إعطاء ما فيها من القوة ، وفى الموضع الذى أراد منها الوقوف حرنت[1] ، فركبت هواها ، فجاءت بالقوة التى امتنعت منها هناك فى السير .

فإن قهرها باللجام فأمسكت عن الركض ، لم تمسك من أجل مولاها ، ولكنها أمسكت من كبح اللجام ، والألم الذى خلص إلى كبوحيتها ، فأشفقت على فيها ، وأسنانها ، ولسانها ، وحنكها ، فتركت حينئذ هواها ، فجعلت تدور ولا تستقر ؛ لأنها لم تسخُ نفسها الدنيئة بطاعة راكبها ، ومع ذلك تبول وتروث فى مكانها ، وتبرك فى مكانها .

فإن استقبلها جلبة نفرت ، وتركت سيرها ، فرجعت قهقرى ، فربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها ، وتنكسر وتقتل نفسها ، فهذه دابة خسيسة ، فيها أخلاق السوء ، لا تصلح للملك ، وإنما تصلح للحمولة ، فتراها الشهر ، والدهر موكفة[2] تحت الحمولة ، فمرة مهزولة ،

---

(١) حرنت الدابة تحرن حرانًا ، وهى التى إذا استدار جريها وقفت . وفرس حرون لا ينقاد . إذا اشتد به الجرى وقف : « لسان العرب » .

(٢) موكفة من الوكف . وهو الثقل والشدة « لسان العرب جـ٦ ص ٤٩٠٩ » .

ومرة دبرة جائعة ، فى عنف ، وسير ، وكد عمل ، وهى دابة من الدواب .

فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات ، وقطع الأسباب ، وانقطع عن اللذات ، ومجاهدة الهوى ، وامتناعه عما يريد ، حتى تذل وتنقمع ، فحينئذ ينقاد القلب والعقل ، وتستقيم فى سيرها على حد ما أمر به ، ولا تهاب أحدًا فى أموره ، ولا تخاف فيه لومة لائم .

وإذا نابته النوائب خاطر بنفسه فى ذات الله ، وأذنه مصغية إلى مولاه ، وقلبه شاخص إلى مشيئاته وإرادته ، وإلى ما يبرز له من حجب الغيب ، فيقبله بالطوع والهشاشة ، والانطلاق إلى ما يستعمله به ، وكيف ينقله من حال إلى حال ، فإن رأى نصرته عد ذلك منه فضلًا ورحمة .

وإن رأى خذلانه فزع إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، صارخًا إليه ، مستغيثًا به ، فهو ولىٌّ من أوليائه ، رفع باله عن نفسه ، فرمى بها إلى ربها ، فقالت : أنت ربى ، وأنت خلقتنى لما تشاء ، لا لما أشاء ، ولا علم لى بشأنى ، وبما فعلت بى ، ووجدتك أرأف وأرحم بى منى بنفسى ، فرفعت

بالى عن نفسى ، وألقيت بيدى إليك مسلمًا ، فاقبلنى ، فإنك قد بينت فى تنزيلك : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[1] ، وقد ألقيت الخلق وراء ظهرى ، فنظرى إليك ، وقطعتُ الأسباب ، فتعلُّقى بك .

والله تبارك وتعالى قائم عليه ، يرعاه ويلكؤه ، ويؤيده وينصره ، ويقر عينه ، والعبد مشغول بربه ، ينظر إلى ملكه ، وينصر حقوقه ، ويحفظ حدوده ، ويعظم أموره ، ويذب عن دينه ما لا يحمل ، ويدعو عباده ، فهو وليه ، ورب العزة وليه ، وهذا شأنه حتى يلقاه .

وبيان صفة هذا العبد موجود فى الآثار ، حدثنا إسماعيل بن نصر ، قال : حدثنا أبو النذر القطعى ، . قال : حدثنا عبد الواحد بن حمزة ، عن مولى عروة بن الزبير ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة لقمان ، من الآية رقم ٢٢ .

والمعنى : « ومن يتجه إلى الله بقلبه ووجهه ، ويفوض إليه جميع أمره ، وهو محسن فى عمله ، فقد تعلق بأقوى الأسباب التى توصله إلى رضا الله » انظر المنتخب من التفسير .

وسلم ، عن الله تبارك وتعالى ، وحدثنا إبراهيم بن المستمر البصرى ، قال : حدثنا أبو عامر العقدى قال : حدثنا عبد الرحمٰن بن ميمون مولى عروة ، عن عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : حدثنى جبريل عن الله عز وجل - دخل حديث بعضهم فى بعض - أنه قال : « **ما تقرب إلَّى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإنَّ عبدى ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، وما تقرب إلَّى عبدى بشىء من النوافل مثل النصح لى حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، ويده التى بها يبطش ، ورجله التى بها يمشى ، ولسانه الذى به ينطق ، وفؤاده الذى به يعقل** »[1] . فما ظننا بعبد يعقل بالله ، وينطق بالله ، ويسمع بالله ، ويبصر بالله ، ويبطش بالله ، ويمشى بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره متقلبة فى الدنيا .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الرقاق ، باب التواضع جـ٨ ص١٠٥ عن أبى هريرة ، وأشار ابن حجر فى « فتح البارى » جـ١١ ص٣٤١ بتخريجه عن عائشة فى كتاب الزهد للإمام أحمد ، وأشار المناوى إلى تخريجه عند أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وابن نعيم ، وابن عساكر ، وابن حبان .

قال له قائل : كيف يكون هذا ؟ قال : هذا عبد قد يسره ، وولى سياسته ، وحفظه ، ورعايته ، واستعمله ، فكان فى صنعه قد أمات فيه الشهوات ، ويسر عليه الصعاب ، وبسط له النور ، ومد له فى الأسباب ، وألهَمه وفهَّمه ، وصيَّره من أولى الألباب ، فإن نطق نطق بحكمة وإن أنصت أنصت بفكرة ، وإن نظر نظر بعبرة ، وإن مشَى مشى بهيبة ، وإن بطش بطش بغلبة ، قد منع قلبه من التفكير ، وسلب فى الأمور التدبير ، وهذا كله موجود تحققه فى الكتاب والخبر .

فأما فى الكتاب فشأن الخضر عليه السلام ، خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، فلو عمل فى الظاهر ، ما قدر على ذلك ، ثم قال فى آخر أمره ، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[1] . فهذا من الله فى الباطن ، الذى يؤتيه من يشاء ، وقد قال فى ذكره له : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2] . فقد

---

(١) سورة الكهف – من الآية رقم ٨٢ .
(٢) سورة الكهف – الآية رقم ٦٥ .

بين أن هذا له من طريق العلم ، الذى عَلَّمه ربه . وما ذُكر من شأن ذى القرنين فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[1] . فأوتى العلم الذى لم يؤت غيره .

فإن قال قائل : فهل يجوز لأحد أن يفعل على ما يتراءى له فى قلبه ، أو يقتدى بالخضر عليه السلام ، فيما يبدو ؟ قيل : لا ، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة ، ولم يبق فى الأرض بعده إلا المُلهَمُون ، والمحدثون ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **قد كان فى بنى إسرائيل محدثون ، فإن يك فى أمتى أحد منهم ، فعمر بن الخطاب** »[2] وكان ابن عباس عندما يقرأ هذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ ﴾ ولا محدث »[3] . والنبى دون الرسول بدرجة ، والمحدث دون النبى بدرجة ، وللرسول درجة الرسالة ،

---

(١) سورة الكهف – الآيتان : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الحج – من الآية رقم ٥٢ .

وللنبى درجة النبوة ، وللمحدث درجة الحديث ، وقد أحكم الله بهذا الإسلام الذى ارتضاه لنا دينًا على لسان الكتاب والسنة ، ما ليس لأحد فيه استبداد ولا تجاوز ولا تقصير ، إنما هو حفظ الحدود ، واتباع الأمر على الجملة .

ثم الصديقون ، والملهمون ، والمحدثون أمور خارجة من الحدود والأحكام ، وهو تدبير الله عز وجل ، وكلاءته ، على ما ذكرناه بدءًا .

ولم نجئ بشأن ذكر الخضر هاهنا لنطلق لمن بعده مثله ، إنما أردنا أن نحقق أن لله عبادًا ، يضع عندهم من مكنون العلم ما شاء ، وأن لهم عنده من المنازل ما يتحقق عند من يفهم هذا ، أن ذلك الذى قلنا كيف يكون ، حتى به يسمع ، وبه يبصر ، وبه ينطق ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يعقل .

فأما ما ذُكر فى الأخبار ، حدثنا عمر بن أبى عمر ، قال : حدثنا الربيع بن روح الحمصى ، قال : حدثنا ابن عياش ، عن ضمضم بن زرعة الحضرمى ، عن شريح بن عبيد الحضرمى ، عن عبد الله بن زيد ، قال : قال لقمان عليه السلام : « ألا إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء ، فلا ينطق

أحد إلا بما هيأه الله له » . وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموى ، قال : حدثنا عمر بن عبيد الطنافسى ، عن الأعمش ، قال : جاء رجل إلى عمر ، رضى الله عنه ، قال : إن عليًّا شجنى ، فقال عمر ، رضى الله عنه لعلىٍّ : لِمَ شججت هذا ؟ قال : إنى مررت ، وهو مُقاوم امرأة ، فساءنى مقامها[1] ، فصغيت لها ، فسمعت ما كرهت ، فشججته ، فقال عمر رضى الله عنه : « إن لله فى الأرض عيونًا وإن عليًّا من عيون الله » .

حدثنا عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، سمعه من قيس بن أبى حازم ، قال : عرض أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، فرسًا له ، فقال غلام من الأنصار : احملنى عليها يا خليفة رسول الله قال : لأن أحمل عليها غلامًا قد ركب الخيل بعدلته ، أحب إلى من أن أحملك عليها . فقال : لِمَ ؟ فوالله أنا خير منك فارسًا ، ومن أبيك . قال المغيرة : فما ملكت نفسى أن أخذت برأسه فركبته ، فأقبل منخراه كأنهما عزلاء مزادة »[2] .

---

(١) أى ما هى عليه نتيجه لإساءة الرجل لها .

(٢) عزلاء مزادة : أى فم مزادة – والمزادة : وعاء الزاد والجمع العزالى .

قال : فبلغ أبا بكر رضى الله عنه أن ناسًا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلغنى أن ناسًا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، والله لا يخرجون من ديارهم أسرع من أقيدهم بروعة الله .

حدثنا الجارود ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضى الله عنهما إلى بنى سليم ، فجعلهم فى الحظائر[1] ، فحرقهم بالنار ، قال عمر رضى الله عنه لأبى بكر رضى الله عنه : تستعمل رجلًا يعذب بعذاب الله ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : « دعنا عنك يا عمر ، والله لا أشيم سيفًا سله الله على المشركين ، حتى يكون هو الذى يشيمه » . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ ، رضى الله عنه : « **لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة** » .

والرفيع : السماء ، والأرفعة : جماعة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصاب فيهم حكم الله عنده ، وكان

(١) الحظائر جمع حظيرة وهى ما يدار حول الإبل وغيرها من خشب أو قصب لحفظها من البرد والريح .

حَكَمَ بان تُقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذراريهم ، وتكون الغنيمة للمهاجرين دون الأنصار ، وذلك فى شأن بنى قريظة .

حدثنا عبد الكريم بن عبد الله ، عن على بن الحسن ، عن عبد الله ، قال : أخبرنى أبو بكر بن أبى مريم ، حدثنى راشد بن أبى راشد ، قال كنت مع خالد بن أبى معدان يومًا فى بعض أسواق المدينة بحمص ، فإذا نحن بنصرانى أظهر الشرك بالله تعالى . فقال لى خالد : احسر عن ذراعيك ، ثم قال لى : دق أنفه ، قال راشد : فوجأت أنفه أن دققته ، فانطلق النصرانى فاستعدى علينا ، فقال الوالى لخالد : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : أرغم الله أنفه وأنف من ثقل عليه تأديبنا له ، أنه ليس لهم أن يظهروا شركًا ولا صليبًا ، فيصنع هذا بهم ، حتى يكفوا عن إظهار الشرك بالله عز وجل .

حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، قال : حدثنا سيار عن حفص بن سليمان ، عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : رأى عامر بن عبد قيس ذميًّا يظلم ، فألقى رداءه فقال : والله لا تخفر ذمة وأنا حى[1] فاستنقذه .

(١) لا تخفر ذِمَّة أى : لا تُنقض . ومن المخطوط ط « أتخفر » لا تصح .

فإذا فطمت نفسك عن حرارة الهوى ، ووقعت حرارة الفطام على قلبك ، فذابت تلك الأخلاط عن قلبك ، وظهر قلبك ، وخرج صافيًا كما خرج الذهب الذى أحمى ، فتهافت عنه تلك الأوساخ والأدناس ، لأن للهوى على القلب أوساخًا وأدناسًا ، كما كان للمعاصى على القلب نكت سود ، على ما جاء في الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد نُكِتَ أخرى ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه** »[1] ثم تلا : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] .

فإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب سواده ، وبقى دخانه ، وذهب الشيطان وبقى ظله ، كما ذهب الليل وبقى سدفه[3] وآثاره عند وجه الصبح ، فإذا تاب عن المعصية ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه ، كتاب الزهد ، باب تكرر الذنوب جـ١ ص ١٤١٨ عن أبي هريرة رضى الله عنه ، ط عيسى البابي الحلبي ، وأخرجه الإمام أحمد فى المسند وأخرجه الترمذى فى السنن تفسير سورة المطففين وقال : حديث حسن صحيح جـ٥ ص ٤٣٤ ط الحلبى ، وأخرجه النسائى فى السنن الكبرى فى التفسير وفى عمل اليوم والليلة .

(٢) سورة المطففين الآية رقم ١٤ .

(٣) السدف : ظلمة الليل « انظر ابن منظور لسان العرب جـ ٣ص ١٩٧٤ » .

وهو ممن يستعمل الهوى ، فالهوى باقٍ بعد ، فهذا قلب قد تاب ، ولم ينزع ، فلم يصقل قلبه بعد .

وذلك أن المرآة المصقولة إذا نظرت فيها ، أرتك عن اليمين وعن الشمال ، وخلفك وأمامك ، فإذا قلبت بها إلى عين الشمس هكذا ، فلاقى نور المرآة نور الشمس ، وجدت الشمس تشرق فى مكانك ، وفى بيتك ، فكذلك إذا صقلت مرآتك ، وهى قلبك ، نظرت عنها إلى الجنة والنار ، وإلى بهاء الحسنات ، وإلى جمالها ، ورفعة مرتبتها ، وإلى قبح السيئات ، وإلى الدنيا والآخرة .

وإذا نظرت فيها إلى تدبير خالقك ، تراءى لك عجائب ، وذلك النور الذى تجده عندك — إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشمس — ليس هو الشمس ، إنما هو نور حدث من بينهما ، فإذا صفا قلبك من الهوى ، حينئذ تجد اليقين ؛ لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من نور معرفتك ، ونور إلٰهك الذى هو نور السمٰوات والأرض ، ونور كل شىء .

فإذا أقبلت على الله ، تبارك اسمه ، أشرق القلب بالنور ، فذلك اليقين ، وإذا كان بالمرآة صدأ ، فقلب بها إلى عين

الشمس ، لم يشرق فى البيت منه شمس لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشمس ذلك الصدأ .

فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ؛ لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة ، وبين النور الأعظم ، وهو اليقين ، فإذا ذهب الهوى ، فنظرت له ، تلاقى النوران ، فأشرق فى صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقينًا ، واليقين فى لغة العرب هو الشىء المستقر الثابت ، تقول العرب ، قد يقن الماء فى الحفيرة . .

صفة القلب

قال له قائل : اشرح لنا صفة القلب .

قال : القلب بضعة من لحم ، فى جوف بضعة أخرى ، وهو الفؤاد ، ومعدن النور القلب ، ومنه قيل خبز فئيد ؛ لأنه فى جوف الرماد الحار والجمر ، فالبضعة الخارجة هى الفؤاد ، وإنما سمى قلبًا لأنه يتقلب ، وله عينان وأذنان وباب ، والصدر بيته ، وإنما سمى صدرًا لأن الأمور تصدر عنه ، فالنور الذى فى القلب يعرف ربه لأنه نوره ، وهو حبة

القلب واشتقاق الحب منه ؛ لأنه وصل حبة قلبه ، ومنه قوله عز وجل : ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾[1] أى أصوله إلى حبة القلوب ، ثم قال تعالى : ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل فى فؤادكم ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **أتتكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبًا ، وأرق أفئدة** »[2] فوصف القلب باللين ، والفؤاد بالرقة ، فالنور إذا خرج من باب القلب ، أشرق فى الصدر ، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور ، فإذا فكر فى الجنة أو النار ، أو فى شىء من أمور الآخرة ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر ، فتمثل ذلك الشىء بين عينى القلب ، فصار كأنه ينظر إليه . وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى ، لم يقع لذكره ظلٌّ على الصدر ، ولكنه يشرق النور ، ويتلألأ النور فى الصدر ، حتى يكاد يغشى بصر القلب ؛ لأن النور إنما أشرق فى الصدر ؛ لأنه نوره ، فإذا ذكر الأشياء ، فالأشياء مخلوقة ، فوقع للأشياء ظل ، فإذا ذكره تلألأ النور ، ولم يقع فى الصدر ظل ، وهو بمنزلة قنديل

(١) سورة الحجرات – من الآية رقم ٧ .

(٢) أخرجه البخارى جـ٨ ص ٩٨ . ومسلم فى كتاب الإيمان . باب تفاضل أهل الإيمان جـ٢ ص ٣٠ والترمذى فى صحيحه ، والبيهقى والطبرانى ، وأحمد .

معلق فى البيت فحائط البيت يشرق عليه نور المصباح ، فإذا رفعت يدًا أو شيئًا بين الحائط وبين المصباح ، وقع لذلك الشىء على الحائط ظل ، وتمثل ذلك الشىء ، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحًا آخر ، ازداد ذلك إشراقًا وضياء ، ولم يتمثل على الحائط صورة ، ولا وقع ظل ، فهذا شأن القلب .

فإذا حمى بالفطام من الهوى فصفا ، صار كالذهب يخرج من النار ، فحينئذ يُحَكُّ بالحجر ، اختبارًا لجودته ، وذلك أن الذهب لاجتماعه وكثرته ، أراك لون حمرته ، بقوة بعضه من بعض ، وانضمام بعض إلى بعض ، فإذا حككت منه شيئًا بحجر وبقى بالحجر من ذلك شىء لطيف رقيق ، تبين لك جودته . إنه يريك فى حال الضعف والرقة . ومن آية قواه أنه قوى الحمرة ، وأنه جيد ، وذلك الردىء المغشوش يريك حُمرته ما دام كثير القدر ، كثير الوزن ، مجمع القوى ، فإذا حككته بحجر ، فبقى الذى على الحجر ، رأيته أصفر ، فعرفت أنه ليس بجيد .

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يُفْطَم ، ويريك أنه قد صفا بالفطام ، فحينئذ يحك بحجر البلوى فيختبر سكونه

بمن ، وإلفه مع من ، أباللَّهِ سكونه ومعه إلفه ، أم لعطائه سَكَنَ ، ومع أحوال نفسه ألف ؟ فالحك هو النقصان ، فمن كان سكونه به ، وإلفه معه ، لم يتغير النقصان ، أعنى نقصان العطاء ، وتجزيله ، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى ما سكنت ، وهل قطعت الهوى ، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله ، وهو الذى يقال له : اعبد الله باليقين لا بالهوى ، واليقين عقيب الهوى . فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك ، فهما يتعاقبان أبدًا .

ويقال : الصبر صبران ، صبر على الشدائد ، وصبر على ما يدعوك إليه الهوى ، طاعة كانت أو معصية . فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى ، حتى صار لك عادة ألاّ تطيع الهوى فى شىء من الأشياء .

وإن أُبيح لك ذلك الشىء واستنار قلبك باليقين ، وهو نور مشرق فى الصدر ، وعينك تنظر إلى ذلك النور ، ونفسك يَقْظَى ، بقرب الله عز وجل ، كما قال عامر بن عبد قيس رحمه الله : « ما وقع بصرى على شىء إلا رأيت الله أقرب منه » وروى عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى ، نحو من ذلك ، وإنما أدرك عامر هذه المنزلة ؛ لأنه راض نفسه ،

حتى صار بحال – حكى عن نفسه أنه قال : وجدت الدنيا أربعة أشياء ، فما زال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى ، حتى قيل له حيث يريد الشام : كيف تبكى على أهل مصر ؟ قال : لأن بها إخوانى ، وبها كثرة تجاوب المؤذنين ، وبها ظمأ الهواجر . قيل له : فقد أُذِنَ لك ، أفلا ترجع ؟ قال : أكره أن أرتحل رحلة هوى .

وكما روى عن وهب بن منبه ، رحمه الله تعالى ، أن رجلًا قال لمعلمه : قد قطعت الهوى . قال : أتفرق بين النساء والدواء ؟ قال : نعم . قال : فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه .

وكما روى عن عيسى بن مريم عليهما السلام : هل يستوى عندكم هذان : كف من تراب ، وكف من ذهب ؟ قالوا : لا . قال : فهما عندى سواء . فهذا قَطْعُ الهوى .

قال له قائل : اشرح لنا هذا . وكيف يستوى هذان فى قلب ؟

قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما ، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى ، لما رأوا منفعة الذهب ، فضلوه من أجل المنفعة .

فينبغى لمن أراد التخلص من هذا أن يروض نفسه ، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية ، بمعنى أنها خلق الله تعالى ، ثم يرى المنازل التى أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله إياها بَيَّنَ لها تلك المنزلة موافَقةً له ، ولو شاء جعل المنفعة التى فى الذهب فى الزجاج وفى الحجر ، ولكان الذهب ساقط المنزلة عن القلوب ، ألا ترى أن عمر رضى اللهن عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر ؟

فإنما ينبغى أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم ، بما أنزل الله لا بهواك ، ألا ترى لو أن رجلًا آتى « سمرقند » بعض هذه الكور التى تجوز فيها هذه الفلوس ، كان للفلوس عنده قدر ، إن افتقدها حزن ، وإن وجدها فرح ، فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس ، فلو رمى بها لم يبال ؟

فهذا مما يدلك أن الذهب إنما عَظُمَ موقعه من القلوب لعظم منفعته ، بأنه صار ثمنًا للأشياء ، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرًا من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم ، لا من الله عز وجل .

فينبغى لك أن تروض نفسك وتفطِمهَا عن هذه الأشياء ، حتى يصفو قلبك ، ويسير باليقين ، حتى ترى الدينار

والدرهم خَلْقَين من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعًا ، ثم تنزلهما بالمنزلة التى أنزلهما الله تعالى ، فبإنزاله بفضلهما ، ويرى المنفعة التى فيهما من خلقهما ، فحينئذ يستوى عندك حالهما ؛ فى أنهما خلقان من خلق الله تعالى ، فهذا عندنا معنى قول عيسى بن مريم عليهما السلام .

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية ، والهوى قائمًا ، ألا ترى أن القوس إذا تُرِكَ استعمالها وتعاهدها وعتقت[1] ، وكيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى ؟ فكلما رميت بها سهمًا أخطأ الغرض ، كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شهواتها ، ويشتد حرها فى الجوف ، وتقوى ظلمة الهوى ، أخذت من البيت الأعلى ، وهو نور العقل ، ونور المعرفة ، ونور الروح ، ونور العلم ، فتحرق بنيران الشهوات من هذه الأنوار التى فى القلب بقدر قوتها .

وإذا قويت بنيرات الشهوات ضعفت الأنوار ، فيظلم الهوى على اليقين ، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات ، فتغلب على القلب هذه الآفات .

(١) عتقت من العتيق . وهو القديم من كل شيء « لسان العرب » .

فمن هنا يُصْرَع ، فهذا هو القلب المصروع ، والمأسور في يد هواها ، قلما خرج منه عمل من أعمال البرد ، ثم لم يصب الغرض ، فوقعت رميته يمينًا وشمالًا ، وربما خرج منه فلم يبلغ الغرض لضعف القوس ، وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات والعلل .

فكذلك آفة القلب الذى وصفنا ، ربما أردت برًّا ، مال بقلبك الهوى إلى الشهوات يمينًا وشمالًا ، حتى تحيد عن السبيل والسنة ، وربما جاوزت الغرض ، وربما ضعف قلبك ، فعملت بغير نية ، فلم يبلغ عملك إلى ربك ، كما قصرت الرمية عن الغرص .

أفلا ترى كيف تعالج القوس ، وتحمى حتى تلين ، فإذا لانت سويت ، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه ، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوى وصلب مُدَّ بالبيت الأعلى بفضل قوته ، فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهواتها ، انتشرت وهاج هواها ، فأحرقت أنوار القلب ، والقلب هو رطب بالأنوار ؛ لأن النور هو من الله تعالى رحمة ، والرحمة باردة ، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار .

فإذا احترق النور ، صلب القلب ، وقسا وييس ، فخف عن ذكر الله ، وَلَهَا عنه .

فالمشروح صدره للإسلام ، شرحه ربه ، ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] فمدت النفس آلتها ، فصار فى سلطانها ، كما يحمى القوس حتى تلين ، ويتخلى عن البيت الأول .

كذلك تُرَاضُ النفس بأن تُحمى ، وهو أن يمنعها اللذات والشهوات ، فتُحْرَق ويصيبها حرقات منع الشهوات فى مصائبها ، فبتلك الحرقات تذل وتنقمع ، وتلين ، وتتخلى عن القلب ، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ، ونور العقل ، ونور العلم ، ونور فوائد العطايا ، فكلما منعت النفس شيئًا من هذه الشهوات ، خلت عنه كما وصفنا ، وكلما أعطيت النفس منيتها قويت ، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل ، والدفلى[2] ، والمر ، والصبر ، والسموم القاتلة . فإن أردت ألَّا تنمو ، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه أن تحبس عنها الماء والسِّرْقين[3] والتراب الذى يلقى فى أصله ، حتى تيبس ،

(١) سورة الزمر – من الآية رقم ٢٢ .

(٢) نوع من النبات مر الطعم .

(٣) أى : السرجين ، وهو الزبل الذى تسمد به الأرض .

فتصير جذعًا ، لا يثمر ، ولا يرجع عليك بالضرر .

ثم لا يزال جذعًا يعترض بين عينيك ، يشغلك عما سواه من الأشجار ، فتشعل فيه نارًا ، حتى يذهب شخصه من بين عينيك ، فإذا هو قد ذهب أثره ، وذهب ذكره .

وكذلك النفس : فى التدبير ، أن تحبس عن النفس لذاتها ، وشهواتها ، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة التى تميت قلبك فى الدنيا ، فتصير أعمى من العميان فى الدنيا ، بصيرًا فى دين الله جل وعلا ، فتقبل على مزيلة وهى الدنيا ، وإنما هى قنطرة ، تداولتك أيدى أسود وأبيض ، وهو الليل والنهار ، حتى يؤديك إلى الخالق البارى ، المثيب المعاقب ، فتعظم ما صَغَّرَ الله ، وتكرم من أهانه الله ، وتدنى من أقصاه الله ، وتتعلق بمن لابد أن تفارقه ، وتعمر ما أذنَ فى خرابه .

فإذا ذهبت ثمراتها حُبست عنها الفكرة فيها ، والحديث عنها ، والتذكرة لها ، حتى تيبس ، ثم لا تزال تمنيه شهواتها ، قائمة بينك وبين ربك ، تفرح بالعطاء ، وترضى بما تُعْطى به ، وتروم ما لم تعط ، وترى نفسها فى الأشياء ، فهى تحجبك وتشغلك .

حتى إذا مَنَّ الله عليك بنور اليقين ، فهى كالبرقة ، كما تشعل شجرك نارًا فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق قائمة نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، ويبقى والهًا منفردًا به ، فتكون الأشياء والأمور منك له وبه .

فإذا أهملتها ، وعجزت عن رياضتها ، رجعت بوبال عظيم ، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[1] ، أمَّنك من آفاتها ، فنسبها إلى اسمه السلام من بين الأسماء ، يُعلمك أن لسكانها السلامة من الآفات ، محشوة بالنعم ، مشحونة بالرضوان ، وتُلْهى عنه باللعب والباطل .

كفى بهذه عارًا ، وأنت عبد ، سخر الله لك الخلق والخليقة ، لم تنل حتى تكون ما عشت قائمًا بتربية حقوقه ، ناظرًا لأموره ، معظمًا لشأنه ذاكرًا له ، ناشرًا عنه الجميل ، مشتاقًا بقلبك إلى لقائه ، فأقبلت على تربيتك نفسك وطلبك لها العز والجاه ، والمنزلة من الخلق ، والذِّكر على الألسنة . فهذه ربوبيته ، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية ،

---

(١) سورة يونس – من الآية رقم ٢٥ .

فاشتغلت عنه ، فسهوت ولهوت عن ربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدَّلك ، وجمَّل صورتك ، ودعاك فأعطاك وحياك ، وأمَّلَكَ، ومنَّاك ، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نَجِّاك .

فهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم الذى أحل الله به ، ولكن تأديب لنفسك ، ورياضة لها ؛ لأن هذه النعم ، إنما أُمرت وأذن لك فى تناولها ، على الأدب الذى أُدِّبْتَ به على لسان الكتاب والرسول ، فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء ، التى مالت بك ، لم تجد بدًّا من أن تعظمها مرة ، حتى يجد القلب فراغًا إلى تعلم الأدب ، فتأخذ طريقًا ، فأما قلب معلق بالشهوات ، مأسور باللذات ، مقهور بالمنى ، محبوس فى سجن الهوى ، فى بئر مظلمة[1] ، فكيف يمكنه أن يتناول ما أعطى بإذن الله ، فإن بعض من خفى عليه هذا النوع من العلم ، كبر فى صدره هذا ، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ

---

(١) فى الأصل « مظلم » .

أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1] .

وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[2] . فهذا من الاحتجاج تعنيف ، ومن القول تحريف ؛ لأنَّا لم نُرِدْ بهذا التحريم ، ولكن أردنا تأديب النفس ، حتى تأخذ الأدب ، تعلم كيف ينبغى أن تعمل فى ذلك ، ألا ترى إلى قوله جل وعلا : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3] . فالبغى فى الشىء الحلال حرام ، والفخر حرام ، والمباهاة حرام ، والرياء حرام ، والسرف حرام .

فإنما أوتيت النفس هذا المنع ، من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها ، حتى تفسد القلب ، فلما رأيتُ النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق ، تريد بذلك تغنيًا ، أو مباهاة ، أو رياء ، علمت أنها خلطت حرامًا بحرام ، فضيعت الشكر ، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر .

---

(١) سورة المائدة – الآية رقم ٨٧ .
(٢) سورة الأعراف – من الآية رقم ٣٢ .
(٣) سورة الأعراف – من الآية رقم ٣٣ .

فلما رأيت سوء أدبها منعتها ، حتى إذا ذلت وانقمعت ، ورآنى ربى مجاهدًا فى ذاته حق جهاده ، هدانى سبيله كما وعد تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] . فصرت عنده بالمجاهدة محسنًا ، فكان الله معى ، ومن كان مع الله فمعه الفئة التى لا تُغْلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ، وقذف فى القلب من النور ، نورًا عاجلًا فى دار الدنيا ، حتى يوصله إلى ثواب الآجل .

ألا ترى إلى ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذا قُذِفَ النور فى قلب عبد انفسح وانشرح** » ، قيل : يا رسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟ قال : « **نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله** » .

وإنما تجافى عن دار الغرور بما قذف فى قلبه من النور ، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها ، فغاب عن قلبه البغى والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء

---

(١) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٩ .

والحسد ؛ لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا ، وحلاوتها فى قلبه ، وحبه لها ، وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس ، بمنع الشهوات منها .

وهذا فى الآثار موجود قائم عن السلف ، قد سارت به الركبان ، من غير وجه . حدثنا محمد بن سهل ، قال : حدثنا عمر بن منصور القيسى قال : حدثنا عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « **ماذا تقولون فى صاحب إذا أنتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه ، دعاكم إلى شر غاية ، وإذا أنتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه دعاكم إلى خير غاية ؟** » قالوا : يا رسول الله ، هذا شر صاحب فى الأرض ، قال : « **إى ، والذى بعثنى بالحق ، هى أنفسكم التى بين جنوبكم** »[1] .

---

(١) انظر الحديث فى كتاب « منازل العباد من العبادة » للحكيم الترمذى ص ٧٨ بتحقيق أحمد السايح ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس عدوك الذى إنْ قاتلك أدخلك الله به الجنة ، وإن قتلته كان لك نورًا ، ولكن أعدى عدو لك نفسُك التى بين جنبك** » ذكره النبهانى فى الفتح الكبير جـ٣ ص٦٠ – ٦١ . وكذلك ذكره صاحب فيض القدير جـ٥ ص٣٦٧ .

وحدثنا صالح بن محمد ، قال : حدثنا أبو مقاتل ، عن ابن عون بن أبى راشد ، عن الحسن ، رضى الله عنه ، قال : بلغنا عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، قال فى خطبته : « لا تضربن بكم الشهوات ، فإنها أشد حرًّا فى الجوف من النار ، وأشد سكرًا من الخمر ، وإنكم لا تدركون ما تأملون ، إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تنالون ما تحبون ، إلا بترك ما تشتهون » .

حدثنا عمر عن سهل بن تمام ، عن عمار بن منصور ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو ، فترق وتصلب وتستعف** » فصفاؤها لله ، وصلابتها فى الدين ، ورقتها للإخوان ، واستعفافها فى ذات الله تعالى .

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت ، فإذا كان كذلك صَفَا قلبك من كدورة الأخلاق ، وطهر من شهوة الآثام ، فاستقر اليقين فيه ؛ لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانًا طاهرًا ، فتحيا القلوب وتصلب ؛ لأنه من الله قد قرب عبده واصطفاه ، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة وأمور الملكوت ، بعين قلبه ، فهو كالبرق فى

ليلة ظلماء ، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب عنك فى تلك الظلمة ، من بئر أو جُرْفٍ أو واد .

أو ما ترى إلى حديث حارثة ، حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن أنس ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « **كيف أصبحت يا حارثة ؟** » .

قال : أصبحت مؤمنًا بالله حقًّا .

قال : « **فانظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة** » .

قال : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى بارزًا ، وكأنى أنظرإلى أهل الجنة يتزاورون ، وكأنى أنظر إلى أهل النار كيف يَتَعَاوَوْنَ فيها .

قال : « **عرفت فالزم ، عَبْدٌ نَوَّرَ الله الإيمان فى قلبه** » .

فقال : يا رسول الله ، ادعُ لى بالشهادة ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . فنودى يومًا فى الخيل

(١) رواه البزار عن أنس والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك وسنده ضعيف .

وكان أول فارس استشهد ، فبلغ أمه ، فجاءت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ابنى ، إنْ يَكُ فى الجنة لم أبْكِ عليه ولم أحزن ، وإنْ يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت .

قال : « **يا أم الحارث ، إنها ليست جنة ، ولكن جنة فى جنان ، والحارث فى الفردوس الأعلى** » ، فرجعت وهى تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة .

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال : عزفت نفسى عن لذات الدنيا وشهواتها ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى ، فصارت الأمور الغائبة عنده معاينة ، فعمل على الحقائق وذهب الجهل ؛ لأنه من نصب وتعب ، وعمل على المعاينة ، زال الجهل عنه ، ومَنْ عمل على غير المعاينة فهو فى جهد عظيم ، ومخاطرة عظيمة من قِبَل نفسه ، إلا من عصم الله تعالى ؛ لأنه كالسائر فى الظلمة ، أحيانًا يمشى ، وأحيانًا تنهشه حية ، أو تلدغه عقرب ، لا يبصر أين يضع قدمه ، فهذه مخاطرة .

وأما جهده ثقل نفسه ، فإنما ثقل أنه لم يعاين ما ثمرة هذه الأمور ، وهو بمنزلة رجل قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فهو يجد ثقلها على فؤاده .

فقيل له : احمل ، ولك هذا الدينار ، فاستمر بالحمولة ، ونهض بأعباء ثقلها فوجد خفة الحمولة ؛ لأنه قَوَّى القلب بما عاين من الدنيا ، فقويت الأركان .

أو قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فَعَلاهُ بالسيف ، أو بشعلة نارٍ ، فخلص إليه الخوف فاحتمله ، فوجده خفيفًا ؛ لأن القلب قد عزم على احتماله ، هربًا من السيف .

أو قيل له احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فقيل له : هذا الملك وأنت بعينه ينظر إليك ، فوجد القلب قد انتقل عن حالته ، إجلالًا للملك ، فاستمر بالحمولة وقوى القلب ، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين .

فكذلك صاحب النفس ، قد عاين ، وشاهد قلبه ، مما هو أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس فى دار الدنيا ، فالقلب الموقن ، صفته إذا تناول النعمة فكأنما يتناولها من خالقه ، فيأخذها بحياء ، ومرة بحلاوة ، ومرة بمهابة ، ومرة بخوف ، وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره ، اختار له هذا ، فظن به أحسن الظنون ؛ لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه

وأرأف ، فَأْتَمَنَ ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربى أعلم بما اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بى هذه البلية لإحدى خلال : إما تكفيرًا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر .

وإما رفع لى درجة يقربنى إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ، أو عصمنى من ذنب ، أو صرف عنى داهية ، أو عاجلنى بعقوبة ، لأنْ يرفع عنى عقوبة الآخرة ، ففى كل هذا خير .

وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربى ، فمشيئته أَجَلُّ عندى ، وأعظم على قلبى من نفسى وجميع جوارحى ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه التى رضيها لهم مُنية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

صفة الموقن

عدنا إلى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن طَلَبَ طَلَبَهُ مع سكون القلب ، على حد ما أَمَرَ به ، فإذا

عرض لهِ فى ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يُفتح .

والعارف تخلص من هذا كله من الضمان والوفاء ، وشُغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه فى البحر الأكبر ، وقد تعلق قلبه به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق[1] ، وإذا رأى اللذات فى الطاعة مئق[2] ، وإذا ذكره تئق[3] .

وإذا حن إليه واشتاق غرق فى أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحزان ، لطول الحبس عنه فى دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولُطْفِهِ ، وجميل نظره ، وحُسْنِ عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومِنْ هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته .

وهو من عظيم عطفه عليه فى كلاءته ورعايته ، واصطناعه إليه ، ومئق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ،

(١) ومق : أحب .
(٢) مئق : فرح .
(٣) تئق : شبع وارتوى ، وتأتى بمعنى حزن وغضب .

وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتئق من طول الغربة ، وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه وثقته ، وكهفه وسنده ورجاؤه .

لا يتهمه على نفسه ، ولا يسيء به الظن فى نوائبه ، بحسن معرفته بربه أنه غفور رحيم ، ودود ، حميد ، مجيد ، واحد ، صمد ، قيوم ، كفيل ، وكيل ، جواد ، كريم ، حنَّان ، منَّان ، حى ، لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور ، غفور ، حليم ، عَفُوٌّ ، رءوف ، معروف بالمعروف ، محسن مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمأن قلبه .

كما وصفه ربه ، فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[2] إلى آخر

---

(١) سورة الرعد – الآية رقم ٢٨ . والمعنى : إن هؤلاء الذين يرجعون إلى الله ويقبلون على الحق هم الذين آمنوا ، وهم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله تعالى بالقرآن وغيره ، وإنَّ القلوب لا تسكن إلا بتذكر عظمة الله وقدرته ، وطلب رضاه بطاعته (المنتخب ص ٣٥٨) .

(٢) سورة الزمر – من الآية – رقم ٢٣ .

الآية ، فبين أن القشعريرة[1] إنما هى من الخشية ، فإذا ذكروه فى كرمه وجوده ، ورأفته ، ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ، ونَعْقِلُهُ ، ولا يبقى على القلب منه شىء ؟ .

قال : لأن نيران الشهوات فى الخوف قد التهبت ، فهى نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهى مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذى عليه ، وهى شبيهة بالنار التى تلهب حمرتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كلما ألقيت عليه قبضة من شىء أوْ رششت عليه قليلَ ماءٍ ، انطفأ قليلًا ثم التهب .

فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذَبُلَ قلبه ، وتخسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتخمد شهواتها .

---

(١) القشعريرة من اقشعر الجلد ، إذا اضطرب وقام شعوره عليه « الفيروزابادى – وبصائر ذوى التمييز جـ٤ ص ٢٧٠ » .

ألا ترى أن الرجل يكون فى لذة من لذات الدنيا ونشاط ، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر وذهب نشاطه ، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس والشهوات أشد انكسارًا ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ، فهو صلب أبدًا ، فرح مرح ، أشرٌ بطرٌ ، فهو ينور بلهب .

فإنما يُطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فماالحيلة فى ذلك ؟

قال : إنَّا لا نعلم له حيلة ، إلَّا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه ، فإنه متى زاده وقودًا اتقد ، وثار والتهب ، وقوى . ومتى ما حبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رمادًا ويذهب حر التنور ، كذلك هاهنا ، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد ، فتذهب فورتها والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب ويقوى ، ويعمل العقل عمله .

ووجدنا فى مبلغ علمنا أن الذى جاء فى الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **أن النار تنادى يوم القيامة للمؤمن ، جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى** » .

هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه ، حتى يقهرها وتتخلص أنواره ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نورُ قلبه نيرانَ شهواته المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة ، حتى يطفئ ذلك النور لهب النار عنه .

ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه النيران سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن يطفئ لهب النيران على الصراط .

لأنه لم يكن له نور على القلب يطفئ نيران شهواته ، وخرجت منه أعمال البر محترقة مختلطة برياء ؛ لأن عامة ما يَصِل من الطاعات ، إنما يُعْمَلُ بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما تنشط له النفس وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا يقبل علمه من ربه ، إنما هو عامل لربه على التملك والاقتدار ، ولا خيار للأحوال ، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب ، فى جنب ما يتطوع به ، وهذا موجود فى الخلق .

ترى الرجل يصلى بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ، ويسوء خلقه ، فى شأن فطوره ، وسحوره ، ويغتاب الناس ، وينفق فى أعمال البر ، ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضى ، وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ، ويطلب عوراتهم ، ويود

الأباعد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل بربه ، يعبده بالهوى ، كلما هوى أمرًا ركبه ، وكذب فيما يقول : إني أريد به الله .

وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس وترك تأديبها ، وقلة النظر فى أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها ؛ لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ، والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها فى خدعهم لأن النفس إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهوانى الذى قد أسره الهوى . وليس لنور الطاعة فى القلب ، ما يغلب الهوى والشهوات ، وإنما القوة الغالبة ، نور المعرفة ، فمن استنارت معرفته ، كانت أموره على بينة ومعاينة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[1] . . . الآية .

فوصف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم علاماته بالإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد

---

(١) سورة الزمر : الآية – رقم ٢٢ .

للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : **« عرفت فالزم ، من سره أن ينظر إلى عبد نَوَّرَ الله الإيمان فى قلبه ، فلينظر إلى هذا »** .

وما جاء عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال له رجل عَلِّمْنى غرائب العلم .

قال : « **ما صنعت فى راس العلم ؟ عرفت الرب ؟** »

قال : نعم .

قال : « **فما صنعت فى حقه ؟** »

قال : ما شاء الله .

قال : « **هل عرفت الموت ؟** »

قال : نعم .

قال : « **فما أعددت له ؟** » .

قال : ما شاء الله .

قال : « **اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمْكَ غرائب العلم** » .

أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماه رأس العلم ، فقد كان مسلمًا ؛ لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة .

فلما سأله : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سأله عن الامتحان عما صنع فى حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ما شاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد قال : حدثنا القاسم العمرى ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، أن رجلا أثنى على رجل عند عمر ، رضى الله عنه ، فقال : صحبته فى سفر ؟ فقال : لا ، قال : فأتمنته على شىء ؟ قال : لا ، قال : ويحك ؟ لعلك رأيته يخفض ويرفع فى المسجد .[1] .

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قومًا لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلا رجلا ، فقيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له فى الدنيا نظير لتبحره فى العلم ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه شعبة .

(١) هذا يشير إلى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « **الدين المعاملة** » .

ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لا يوجد له فى الغنى نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لا يوجد له فى الكرم نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، وقيل له : هذا الآخر صانع الأشياء ، لا يوجد له نظير فى كل صناعة ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه و قيل له: وهذا الآخر كفيل ، يكفل الأرامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لا يوجد له نظير فى رأفته ورحمته ، فعظم فى عينه وأخذ بقلبه .

ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت أدنى شيء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ومنعة وسلطان ، قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا قوى لا يُطاق ، له قوة ألف رجل من الرجال ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ، ويعظم فى عينيك شأنه . وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا .

فلو أن هذه الخصال كلها جُمِعَتْ فى رجل واحد ، لكان يعظم فى عينيك ، ويكبر شأنه فى صدرك ، وتعظم منزلته عندك ، ويأخذ بقلبك كله ، فهذه الأشياء لو اجتمعت فى رجل واحد كانت عارية ، وهى عطاء من ربه .

فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة ، وهو مخلوق يفنى ويبلى ، فكيف بالعالم الذى لا يشبه علمه وغناه ، وجوده وكرمه ، وحلمه ومجده ، وبهاؤه وجمالته ، ورحمته ورأفته ، وقوته وقدرته ، وسلطانه وبصره بالأشياء - شيئًا مما عند الآدميين ، وإنما اتفقا بالاسم .

فأما الأشباه فتعالى ربنا ، رب العالمين عن أن يشبهه شيء من خلقه ، فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره ، ووعده ووعيده ، وضمانه وكفالته وقوته ؟

فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه ، واطمأن إلى ربه ، ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ، فمنهم من وَفَّى ، ومنهم من سقط ، وبقى فى الطريق ، فأظلم عليه الهوى ، ووقع من التخليط فى الذنوب .

ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطَرَ الناس عليها .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة ص – من الآية رقم ٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون – الآيات ٨٤ – ٨٩ .

وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشركوا به غيره فى مُلكه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[3] .

فأقروا بالربوبية ، ثم اشركوا فيه ؛ لأنهم نطقوا من قلب مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلًا فى كتابه فقال : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾[4] .

---

(1) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦١ .
(2) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٣ .
(3) سورة يوسف – من الآية رقم ١٠٦ .
(4) سورة البقرة – من الآية رقم ٢٠ .

وقال : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[1] .

فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه ، ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك .

فالرغبة فى النفس من قبل النفس ، والرهبة فى النفس من أجل النفس .

والخلق بهذه الصفة من مات منهم ، فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق .

فكل من غلب عليه خُلُق من هذه الأخلاق ، نُسب إليه وأُلقى فى ذلك الباب ، وعذب فى ذلك الدَّرْك . وما يُصَدِّقُ ذلك ما جاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« للنار باب لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بسخط الله

---

(١) سورة البقرة – الآية رقم ١٧ ما عدا الكلمة الأولى (مثلهم) .

تعالى » . حدثنا بذلك أبى - رحمه الله - قال : حدثنا عبد الله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبة الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **مَنْ مَنَّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة وجعل له نورًا يمشى به فى الناس ، كان له وليًّا ، يخرجه من الظلمات إلى النور ، وكان ميتًا فأحياه** » ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[1] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[3] .

وقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٥٧ .

(٣) سورة النور - من الآية رقم ٣٥ .

(٤) سورة النور - من الآية رقم ٤٠ .

فوصفه إلى آخر الآية وقال : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾[1] . ثم قال : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] إخبارًا عن المنة عليهم ، فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذى أعطى ، نطق لسانه بتوحيده ، وعرف قلبه ربه ، وصدقه فى وعده ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ، فذهب عن الشك والشرك والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبدل بالغفلة اليقظة ، وبدل بالشك اليقين ، وبدل بالشرك الإخلاص ، وبقيت فيه الشهوة والرغبة ، والرهبة والغضب .

وكلما ازداد العبد فى إيمانه نورًا وقوة وشعاعًا ، تنقَّص من الغضب والشهوة ، والرغبة والرهبة ، فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ، وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه ريبة القلب واضطرابه وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة ، فيتعلق بالأسباب ، ويكون اعتماد القلب على الأسباب ، وينسى ربه ، لا لأنه يجحده .

(١) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة الأنعام – الآية رقم ١٢٧ .

إذا ذكر أقر ، وإذا نسى تعلق قلبه بالأسباب حتى يفتتن ، والأسباب مثل الحصن ، يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه فيتقوى ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ، وكالدواء ، ليستشفى به ، فينسى ربه فى شأن الرزق ، يطلب ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن .

فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو سبب المعصية والفتنة .

فإذا استنارت معرفته فعملت ، كانت كالشمس تشرق فى قلبه بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له معاينة ، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولى الأسباب .

ومنه قول عيسى بن مريم ، عليه السلام : « لو أن رجلًا مستكمل الإيمان يهز جبلًا لزال عن مكانه » ومنه قوله لبعض الحواريين حين أراد أن يلحقه فى البحر فيمشى على الماء معه :

« هات يدك يا قصير الإيمان » . ثم مشى به فى موج البحر .

فقال : خفت الموج ؟

قال : نعم .

قال : ألا خفت رب الموج ؟

ومنه قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، ونصح لله ، فقد استكمل الإيمان** » .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « **قل اللهم إنِّى أسألك صحة فى إيمان ، وإيمانًا فى حُسن خُلُقٍ ، ونجاحًا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانًا** » .

وفى هذا الباب حديث كثير عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ومنه قول الحسن البصرى – رحمة الله عليه – فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾[1] ، قال : غير مستكمل الإيمان : ﴿ فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) سورة الأنبياء – من الآية رقم ٩٤ .

ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1] .

أى تطهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العُلَى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء .

فمن هاهنا قالوا بزيادة الإيمان[2] ، سموا هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به ، إيمانًا كالشمس ، شعاعها الذى يقع بالأرض نسميه شمسًا ، والذى يطلع فى المجرى نسميه شمسًا ، لأن هذا منه .

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن من أمتى رجالًا حال بينهم العُرْىُ عن أن يأتوا مُصَلَّاهُم ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات بن حباب العجلى** » رحمه الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن مهدى وعبد الله بن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

---

(١) سورة طه – جزء من الآية رقم ٧٥ بعده الآية : ٧٦ .

(٢) والإيمان يزيد وينقص – كما قال الكثير من العلماء – قال تعالى فى سورة الأنفال – الآية الثانية – : ﴿ **وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا** ﴾ .

فسموا هذا النور إيمانًا ، وذلك جائز فى اللغة ، وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله : « غير مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور .

فوجدنا التبحر فى العلم بالله ، بحسن المعرفة ، يملأ القلب نورًا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية فى القلب إلا الإخلاد والتَّمَكُّث ، فلذلك تراه فى الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة ، والتمكث على الجسر . وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر .

قلنا : كان أصل هذا الأمر والمدار عليه هو الإيمان به ، حسن المعرفة له كما وصفنا ، من السكون ، والطمأنينة ، لثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين ، وقوته ، ذكرنا بَديًّا ، امتحن الله تعالى بفرائضه ، وحدوده ، آمره ، ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء كبة فيهم .

وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتيانها ، وحَدَّ لهم حدودًا ، د لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقعود عن إتمامها ؛ ليظهر ما فى ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم ، فى الضعف ، والقوة ، لخلقه من فى السموات والأرض ،

والملائكة ، وسائر الخلق،[حتى][1] إذا رفع بعضهم فوق بعض فى الدرجات لم ير أحد من خلقه من الملائكة ، والسمٰوات ، والأرض ، وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلًا .

وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود ، والفرائض ، والأمر ، والنهى ، فقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾[2] . أى يستخرج أسرار ضمائرهم حتى يكون عذرى يوم القيامة قائمًا ، وأمرى ظاهرًا ، فلا يرى خلقى منى ذلك إلا حَسَنًا جميلًا ، ومعروفًا .

فلما عرف أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل الشهوات المركبة فيهم وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى ، والشهوات ، وقلة المعرفة ، بأمور ربه ، وضعف اليقين ، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيمًا لهم ، لأن مَنْ آمن ، ودخل فى ولايته ، وحزبه ، صار سعيدًا بجنته ، فحرَّمَ

---

(١) فى الأصل : لكى .
(٢) سورة محمد – الآية رقم ٣١ .

دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحَرَّمَ عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ، والجهر بالسوء ، والأذى ، وحرم عليهم الزنى ؛ لأن فيه الغيرة والأذى بعضًا لبعض ، وحرَّم الخمر ؛ لأن فيها الأذى ، وتلف النفس ، وإهلاكها ، وحرم الربا ، ودل على المواساة ، والتقارض ، وقال : ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[1] .

ففى ذلك دليل على حَضِّهم ، ومنع بعضهم من بعض ، وحَضِّهُم على البِرِّ بعضهم لبعض ، إبقاءً عليهم ، ومرفقًا لهم ؛ لأنهم أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ليطهر أبدانهم ، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم ، ودعاهم إلى الجمعة ليطهر خطاياهم ، ودعاهم إلى الحج ليعتق رقابهم من عظائم الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ليرحم بعضهم بعضًا فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد فيتخذ منهم شهداء ويرفعهم فى الدرجات .

ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، دعاهم إلى بر الوالدين ليقوم بشكرهما من أجل التربية ؛ لأنه يبغض الكفور ،

(١) سورة البقرة – من الآية رقم ٢٣٧ .

ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى الصاحب بالجنب ، وإلى الضيف والمملوك ، وكل هؤلاء أهل حقوق . ودعاهم إلى الإحسان إليهم ؛ ليكون ذلك شكرًا لهم . فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدهم بها .

فأما أصل الأمر فهو ما وصفته لك فى أول الكتاب : أنه دعاهم إلى إحكام المعرفة حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من قبل أن يؤمن أغلف ، وللقلب عين ، وآذان . فإذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة ، وسبقت له منه الحسنى ، جعل له ذلك النور ، كما نطق به الكتاب ، فقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[1] . أى بذلك النور ، وهو قوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[2] .

ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد عَلِمَ من يصيبه ومن يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضًا وسودًا ، ثم استنطقهم**

---

(١) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٢ .

يومئذ » . فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه قال : فأقروا له بالربوبية طوعًا وكرهًا وتقية ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1] ، حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن أسباط ،عن السدى ،عن أبى صالح ، وأبى مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] . وقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[3] .

فلما حيى القلب بذلك النور صار سميعًا بصيرًا . وروى عن الحسن – رحمة الله عليه – تفسير هذه الآية : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[4] . قال : صُمُّ آذانِ القلوب . وعلى تأويل قوله تعالى عندنا : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ٨٣ .
(٢) سورة النور – من الآية رقم ٤٠ .
(٣) سورة الزمر – من الآية رقم ٢٢ .
(٤) سورة مريم – من الآية رقم ٩٧ .

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] .

فالحيُّ هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورًا بما رحمه الله ، وقسم له فى سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

فذكر هاهنا الإذْن للنفس ثم ذكر القلب ، فقال : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[4]. فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبًى

---

(١) سورة الأعراف – الآية رقم ١٩٨ .

(٢) سورة يس – الآية رقم ٧٠ .

(٣) سورة يونس – من الآية رقم ١٠٠ .

(٤) سورة الحجرات – من الآية رقم ٧ .

من أهل جباية الله تعالى ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾[1] . وصار موسومًا بسمة الله ، وهو ذلك الذى أصابه .

فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب عن الله ، وأبصر بالغيب ، وَعَقَلَهُ ، وعزم عليه موسومًا بِسِمَةِ الله ظاهرًا وباطنًا ، فقيل : هذا مؤمن مسلم ؛ لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بِكُلِّه ؛ لأن الو- جامع .

ألا ترى أنك تقول فى اللغة للسائلين بين الناس وجوهًا كثيرة ، فتدخل فيه البدن كله . والمؤمن إذا آمـ أمره ، فإنه يعمل على تسليم نفسه إليه ؛ لأن إيمانه بأنه ربه ، فرقبته له ، وجميع ما ملكت يمينه له ، و إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾[2] . أى فى اللوح المحفوظ

---

(١) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

هَٰذَا﴾ يعنى : فى القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ .

أى : إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبلغنا رسلك أمرك ، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأنتم أهل تسميتى ، الذين سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلَىَّ أنفسكم فيشهد لكم بذلك الرسول ، الذى بعثته بالمقام المحمود ، الذى يغبطه الأولون والآخرون ، فبلغنا فى الحديث : « **وتشهدون أنتم لرسلى على أممها التى لم تسلم لى نفسها ، فبهذا صرتم شهداء رسلى ، وحجتى على خلقى** » .

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لمَّا حَبَّبَ إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وتزين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه مسلمًا ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، فقيل غفلة ، والأول كانت غلفة .

فلما ذهبت الغلفة ، حيث جاء النور ، وبقى الهوى غفلة . وقد نجد مثل هذا كثيرًا فى اللغة ، يقال : جبذ وجذب وكشر

وشكر ، وزرق ورزق ، ومجر ومرج ، وحدج وجحد ، وعلم وعمل ، وغرف وغفر ، ومثل هذا كثير[1] ، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتُقَّا فاستعمل هذا فى نوع ، وهذا فى نوع ، والآخر فى نوع . وإن كان القالب يختلف على فعل وعفل ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ، وخُولف فى القالب للاستعمال فى نوعه ، ليُعرف باختلاف القالب نوعه الذى عنى به .

وكذلك الفعل أيضًا مثلهم ، فقيل : كشر إذا تبسم فبدت أسنانه ، وإذا بدا لقلبه فرأى نعمة إليه من الأسباب شكر ؛ لأن النعم قد بدت له ، وكذلك قوله : رزق .

هذا فيما بدا إليه من الأسباب فى مطعمه ومعاشه ، وهذا فيما بدا إليه بالسبق ، فيرزق به .

وكذلك يقال فى الحربة والمزراق ، فكذلك الغفلة والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة فى وقت الكفر ، والكفر هو الغطاء[2] ، فإذا ذهبت تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء

---

(١) راجع ابن منظور : لسان العرب .

(٢) انظر الفيروزابادى و « بصائر ذوى التمييز » جـ٤ ص ٣٦١ .

النور ، بقيت الغفلة ، وهو الهوى ، قائمًا فيما بينه وبين ربه .

وكان للقلب حجابان : حجاب غطى ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقى الحجاب الآخر قائمًا بينه وبين ربه تعالى ، فهو الذى يغفله وينسيه ، وهى التى تسمى غفلة ، فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها بين قلب العبد وبين ربه ، بعد أن أسلم له وانقاد ، واعترف وقبل أمره وعزم عليه ، فهو يتعاصى عليه وتستأديه الشهوات التى حرمت عليه ، وتزلزله فى شأن الرزق وتوسوس إليه فى نوائبها وأمورها على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرءوف به قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به وأبر له وأزين به وأفضل .

فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ، وخيبته ومنته ، وأشقته وألهته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهى سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك .

فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن أعْدَى عَدُوِّك نَفْسُكَ التى بين جنبيك** »[1] .

فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيديك إلى الله سلمًا ، بما جعل فى قلبك ، أمرك بمجاهدته ، فقال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[2] .

وأنبأك فى كتابه شأن النفس والهوى ، فى آى كثيرة ، منها ما ذكر عن قول يوسف عليه السلام ، حيث قال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾[3] .

وحيث قال لداود عليه السلام : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4] . . . الآية . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ

---

(١) ذكره النبهانى فى الفتح الكبير جـ٣ ص ٦٠ عن ابن مالك بن الأشعث ، وكذلك ذكره صاحب فيض القدير جـ٥ ص ٣٦٧ .

(٢) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

(٣) سورة يوسف – من الآية رقم ٥٣ .

(٤) سورة ص – من الآية رقم ٢٦ .

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[1] . الآية .

فأمره بالمجاهدة ، حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا فقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. فسماه محسنًا ، ووعده أن يكون معه ، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يُغلب .

فوعدك على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى هدايتك سبيله ، هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى الآجل ، إذا قدمت عليه غدًا بالمجاهدة وبثمرة المجاهدة ؟

فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى ، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾[3] . أى كما جعلتك من أهل جبايتى ، جعلت لك نورًا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذنى قلبك حتى عرفتنى .

فالآن جاهد فى ذاتى هواك وشهوات نفسك ، حتى يظهر انقيادك لأمرى ، ويعز دينى ، وتعلو طاعتى ، والمجاهدة على

(١) سورة النازعات – من الآية رقم ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا فى النادر فى الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ .

وقال فى آيه أخرى : ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ ، أى امتنع من شر النفس وحربها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس عدوك ، يرميك بسهم الشهوة ، والهوى يقويها وهى مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسهم المعرفة والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ؛ لأنك بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله .

فذلَّكَ ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهدة فقال : ﴿ **هو مولاكم** ﴾ أى يلى نصركم ، ثم قال : ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1] ، ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ، ومتابعتها .

فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه أن يمنع النصرة ، فإذا منع النصرة فجاهدت النفس ، رمتك بسهام الشهوة والهوى ، فرميتها بسهام المعرفة والعقل لم تغلبها

(١) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

وغلبتك ؛ لأن العلم والعقل والمعرفة فى القلب ، والهوى والشهوة خارج من القلب ، قائم بين القلب وبين الرب ، قد أظلم على سمعك وبصير عينى قلبك بغشاوته ، فسجن ما فى القلب ، وغلب على القلب ، فصار بمنزلة سراج فى بيتٍ ، والسراج فى الفخار وعليها غطاء ، فالبيت مظلم . .

فإذا انكشف الغطاء ، أبصر ما فى البيت ، مما يضر وينفع ، فإذا جاهدت النفس ، فاعتصامك به فى ذلك ، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به ، واستغناك به ، هو الذى يغنيك ويعينك ، فينصرك ، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] ؟

فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك ، وقال تعالى :﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[2] . ثم لا يجيب ولا يكشف ، تعالى الله عن ذلك ، وإذا نسيته فى ذلك الوقت، منع النصرة، لتركك ذكره ، ولاقتدارك فى الأمر .

---

(١) سورة الفاتحة – الآية رقم ٥ .

(٢) سورة النمل – من الآية رقم ٦٢ .

وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيته ، واقتدرت فى أمره ، وقد أمرك بأن تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن اقتدر فى أمره ، والأمر كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعَرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[1] .

النصرة

قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن تُوصف ؟

فقال : إن نور المعرفة فى القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجابًا ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقًا

---

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ١٦٠ .

من قلبه إليه ، حتى يصير عين قلبه ، كأنه يراه من غير كيفية .

وهو قول جبريل – عليه السلام – لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث سأله عن الإحسان ، فقال : « **أنْ تعبد الله كأنك تراه** »[1] . وقال فى حديث آخر : « **إن أقوامًا أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية** » .

قال ابن عمر ، رضى الله عنهما فى حديث : « إنا كنا نتراءى الله تعالى بين أعيننا فى الطواف » . حدثنا بذلك قتيبة ، عن محمد بن منير ، عن نافع ، عن ابن عمر .

وقال فى حديث حارثة ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كيف أصبحت ؟** » قال : **مؤمنًا حقًّا** . فسأله عن الحقيقة ، فقال : « كأنى أنظر إلى ربى على عرشه » ، هذا فى رواية ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى حبيش ، عن عبد العزيز بن أبى دؤاد . وأما رواية ثابت عن أنس ، فإنه روى : « كأنى أنظر إلى عرش ربى » وهذا النوع فى الآثار كثير .

---

(١) البخارى جـ٨ ص ٥١٣ ، ومسلم جـ١ ص ٣٩ ، والترمذى جـ٥ ص ٦ وأبو داود وابن ماجه .

وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات النفس ، ألا ترى إلى قوله : « عَزَفَتْ نفسى عن شهوات الدنيا ولذاتها » فهذا قطع الهوى ، فإذا قطعه هداه الله طريقه ، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف ، وهكذا وعد فى كتابه ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] .

فإذا هداه طريقه ، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى ؛ لأنه فتح طريق قلبه إليه ، فحينئذ يمكنه السكون إليه ، ويطمئن القلب ، ويثق بوعده ، ويأتمنه على نفسه ، ألا ترى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم حيث حكى عنهم ، قالو : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[2] . . الآية .

فَأُخْبِرُوا أنهم إنما قدروا على التوكل ، وهو تفويض أمر النفس إليه ، بأنه هداهم لسبيله ، فزال الحجاب ، أعنى الهوى والشهوات ، عن بصر القلب ، فلم يبق بين يدى قلوبهم شىء يحجبهم ، فصارت الأمور لهم كالمعاينة والمشاهدة ، ألا ترى

---

(١) سورة العنكبوت – من الآية رقم ٦٩ .

(٢) سورة إبراهيم – من الآية رقم ١٢ .

إلى قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف القلب ، فقال : « **أبصر الغيب بالغيب فآمن** » ، أو كما قال . فهذه نصرة الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة ، فبقيت مخذولًا ، مأسورًا فى يدى الشهوة والهوى ، فإذا صار القلب مأسورًا ، فهو كملك مأسور فى يد العدو ، فإذَنْ تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون فى الملاهى والأباطيل .

المجاهدة

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال : « **حق جهاده ؟** » .

فقال : اعتبر مجاهدٌ الظاهر ، وامتثل رجلين ، أحدهما سلاحه تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق فى الطريق رفقاء ، وتبسَّط فى مَسِيرِه وطَرِبَ مع رفقائه ، وتلذَّذ برؤية الكون ولقاء الناس .

وفرح بما نُسب إليه من الجهاد ، والغزو ، فقيل : هذا فلان الغازى ، وطمعت نفسه فى علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة

عن الناس ، واتخذ الجاه عندهم بذلك ، ونال الكرامة فى مسيره مقبلًا ومدبرًا ، وقلبه هاهُنا معلق بحب الدنيا ، وما خَلَّف فيها ، فهذا حاله فى الطريق حتى إذا بلغ المنتهى ، فعلى وده أنه لا يلقى عدوًّا أبدًا ، ولا يسمع بذكره ، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التى خلفها وراء ظهره .

حتى إذا لقى العدو ، وجاهد مجاهدة مراوغ ، ليس له صدق القتال ، يريد الروغان[1] . والنكص على عقبه ، والهرب ، حتى إذا انقضى الجهاد مر منصرفًا مسرعًا ، إلى شهواته ، التى حن إليها ، وإلى مأواه الذى قد ألفه ، ووطنه الذى قد استوطنه ، قد سلم بنفسه ، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته ، فجاء به كما ذهب به إلا النفقة ما أنفق فى مسيره ، وما أنفق أيضًا فقد طرب إليه وتلذذ ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة .

فهذا قد سمى فعله هذا جهادًا ، فلم يكفر فعله ، بل يُعْطى ثواب نفقته غدًا ، وثواب عنائه وتعبه ، وأنه كَثَّر سوادَ المسلمين وأعانهم ، وشايعهم .

---

(١) راغ يروغ روغًا وروغانًا : حاد . وراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد . « لسان العرب » .

وَرَجُل أخذته حمية الإيمان ، فغار لربه ، فخرج يقصد محاربة عدو ربه انتقامًا وتعظيمًا على عدوه ، أو رجل أيِسَ من نفسه ، أن يخرج منه خير ينجو به ، ورأى قبح مذاهبه ، وسوء فعاله ، فضاق به الأمر من شراهة نفسه ، وقلة ضبطه لها ، فاغتاظ منها ، وحمى لربه على نفسه ومقتها ، وهاله عظيم خطره منها ، فقدمها إلى العدو لتحاربه ، لعله أن يُرْزَقَ الشهادة فيقتل ، ويغسّل بدمه سائر جسده ، حتى يلقى الله تعالى طاهرًا من أقذار المعاصى .

فهذا رجل خرج بهذه النية ، أو بتلك النية التى غار بها لربه وحمى له ، وهو أرفع درجة من هذا الذى برم بنفسه ، وأراد التطهر ، فلما لَقِى أحَدُ هَذَيْن الْعَدُوَّ ، ونهمته فى عامة مسيره المحاربة – إمَّا غيرة لربه وحمية ، وإمَّا تطهيرًا لبدنه ، والظفر بالشهادة – ظهر منه صدق اللقاء ، فبادر وحارب وجاهد ، فلم يلبث أن صار قتيلًا ، وبالدماء مزمولًا ، وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن ، وتبدد سلاحه هكذا ، وهكذا ، من نهبة العدو ، وأخذت دوابه وجميع ما هناك ، وتقبل الله روحه ، فجعله حيًّا يرزقه عنده ، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله ، كما وصف تعالى فى تنزيله

قصة الشهداء ، فقال :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾[1] . إلى آخر الآية .

فصار روحه مقبولًا وصار عنده حيًّا فَرِحًا ، مستبشرًا مرزوقًا ، من غير تعب ولا كد ولا عناء ، فهذا حق الجهاد فى طلب الجهاد ، والأول رجل متحرٍّ للخير ، طالب للثواب .

فكذلك جهاد النفس حق جهاده ، أن يصدق اللقاء ، فلا تسلم منه نفس ولا مال ، فإذا أخذ فى المجاهدة تخلصت الهموم والأحزان إلى النفس ، وانقطعت اللذات والشهوات ، وتغير اللون ، ونحل الجسم ، وضعف البدن ، وذهب الفرح والتسلط ، واشتغل القلب ، فضعف عن طلب الدنيا .

قد خلص النكص فى المال ، وتعطلت الأمور ، ووجد المكاسب والأرباح ، وأدبرت الدنيا عنه ببهجتها ، وزينتها ، ولذتها وعزها ، وبهائها وملكها ، وصَفْوها وخِدعِها ،

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ١٦٩ .

وأقبلت الآخرة بحقائقها ، من البكاء والأحزان ، والاستكانة ، والصلاة ، والصيام ، والذكر ، والقرآن ، وأعمال البر ، فَشُغِلَ عن الأهل ، والولد ، وعن التلذذ بقربهم ، والأنس بهم .

فصار الولد يتيمًا ، والأهل كالأرملة ، والمسكن وحشًا ، وتعطلت الأوقات التى كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء ، وتبدل بها جوعًا ، وييسًا ، وبالضحك بكاء ، وبالفرح حزنًا ، وبالسرور غمومًا ، وبالراحة نصبًا ، وبالنوم سهرًا ، وبالدعة تعبًا وضيقًا ، وبالغنى فقرًا ، وبالعز ذلاًّ ، وبالمدح ذمًّا ، وبالثناء طعنًا وعيبًا ، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ، ولا قَدْرٌ إلا ذهب كله .

فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه ، وشهواته ، ومناه ، وصار هواه كالقتيل ، فتخلص روحه عن هواه ، فتقبل الله روحه ، وأحيا قلبه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووصل بقلبه إلى إلٰهه ، ففرح واستبشر ، فقلبه عنده فرح مستبشر ، حى ، فمن هاهُنا برز الصِّدِّيق على الشهيد لأن الشهيد احتسب بنفسه على الله تعالى مرة واحدة ، حتى قُتل .

والصِّدِّيقُ يحتسب نفسه ، فلم يزل يقاتل هواه فى كل حركة ، حتى قتل الهوى فخلص روحه وقلبه من الهوى ، فهذا غاية الصدق ، فسُمى صِدِّيقًا ؛ لأنه لم يبق فى نفسه منازع ، فصار البدن كله لربه مبذولًا بصدق منه ، لا منازعة للهوى فيه ، فكما صار الصِّدِّيق عنده فى الآخرة حيًّا مرزوقًا ، صار بالصدق هاهنا فى القلب به مرزوقًا ، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله .

كما صار الشهيد فى الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهى أنْ يُرَدَّ إلى دار الدنيا فيقتل فيه،فصارت منيته كذلك الصِّدِّيق ، ماتت شهواته ، فصارت منيته ، ونهمته فى ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالى فى بعض الكتب : « أيها الصديقون تنَعَّمُوا بذكرى ، فإنه لكم فى الدينا نعيم ، وفى الآخرة جزاء » .

حدثنا ابن أبى زياد ، قال : حدثنا سيَّار ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار ، رحمه الله تعالى ، قال : قرأت فى بعض الكتب : « إن سَرَّكَ أنْ تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحْتَلْ فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهواته الدنيا يَفْرَقُ الشيطان مِنْ ظِلِّه » .

أفلا ترى أنه قال : إذا غَلَبْتَ شهوات الدنيا حَيِيتَ ؛ لأن القلب إذا كان فى ظُلمة الهوى وغفلته ، كان كالميت ، وليس بالميت ؛ لأن الميتَ قلبُ الكافر ، وقلبُ الغافل كالميت ، وليس به حياة ، وقال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين ، فَعِلْمُ اليقين أن تعبده سبحانه كأنك تراه .

وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين فى تنزيله ، فقال : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[1] . فأخبر تعالى : أن بعلم اليقين ترى الأشياء : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾، أى غدًا ، يعنى الجحيم ، ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[2] .

فهذا حق الجهاد ، وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة نفسه ، فصام أيامًا ، ثم ترك ، واجتنب بعض الشهوات ، وتناول بعضًا ، وحزن مرة ، وفرح أخرى ، وبكى يومًا ، وضحك أيامًا ، وصام وصلى ، وساح مرة هكذا ، ومرة هكذا ، وحمل على نفسه مؤنًا كثيرة ، وأتعب نفسه من طريق أنواع البر ، من سهر الليل ، والحج والجهاد .

---

(١) سورة التكاثر – الآية رقم ٥ ، ٦ .

(٢) سورة التكاثر – الآية رقم ٧ .

إلَّا أن ذلك كله بهواه عمل ، حيث طرب ونشط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد أن تسلم له نفسه وماله ، ويقضى شهواته ومناه ، ويكون مخلصًا ، فهذا غير محقق جهاده ، يُعْطى ثواب هذا التعب والعناء ، ويؤجر عليه ، ولكن لم يحارب الهوى ، فى كل موطن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقتل روحه ، فيحييه ويفرحه بنفسه ، فالحرب من عندك والنصر من عند الله العزيز الحكيم ، فإذا نُصِرْتَ قتلت هواك ، وتخلص روحك منه وقلبك ، فَقَبِلَهُ ، وَحَيَّاه ، ونَوَّرَهُ ، وهداه ، واجتباه ، ورعاه .

الهوى

قال له قائل : وما الهوى[1] ؟ .

قال جوهرة النفس ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِقَ من تراب ، فكان الهوى هو عنصره الذى فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس ، وهو صفوة غذاء

---

(١) ذكر الحكيم الترمذى فى كتابه « منازل العباد من العبادة » المنزلة الخامسة تحت عنوان منزلة قطع الهوى انظر « منازل العباد من العباة) ص ٨٥ .

الأم ، والهوى تنفس النفس ، وهو كدورته ، وأصل جوهريته ، وهو مظلم ، وهو قوة غذاء الأم .

لأن التراب مظلم ، وأمك إنما ربتك من اللبن ، ومما أخرجت الأرض ، فلذلك قيل فى الحديث : « **لكل شيء نَفَسٌ ، ونفَسُ النَّفْس الهوى** » ، فما دام الروح فيك فأنت كون الروح ، فإذا خرج الروح منك ، صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذر عليك التراب .

لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية ، فقد علم شهوات الأرض ولذاتها ، وعرفها بذلك العنصر المظلم المتشعب ، هناك له ميلان ، يهوى إلى جنسه ، فَسُمِّىَ هَوًى ؛ لأنه تَهْوى به النفس ، والنفس تَهْوِى بالقلب ، والقلبِ يَهْوِى بالأركان إلى العقل ، والعقب يَهْوِى بجميع الجسد غدًا إلى النار .

فمن هاهنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض ؛ لأنه من جنسه .

وإليه يحن ، وله يألف ، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى ، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق

اضطربت ، فأُسْكِنَتِ بالجبال الرواسى حتى سكنت .

كذلك النفس ، إذا اضطربت فَإنَّمَا تسكن بالمعرفة ، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب ، كانت النفس أسكن ، ومنه قيل : الإيمان أثبتُ فى قلوبهم من الجبال الرواسى ، فحب المحمدة ، والرياسة ، والعلائق ، والعلو ، بشهوة العز ، وإنما أحب العز واشتهاه ، لاستدامة نعمة النفس .

لأنه قد علم أنه إذا عَزَّ وعلا علَى الخلق أدرك مناه ، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة ، ويكون قد قهر الخلق كلهم ، حتى يكون كله على ما يريد ، لا يخالفه أحد ، فينال لذة جميع ما يهوى ، فيدعوك الهوى ، ويميل بك إلى طلب اللذة ، وقضاء الشهوة .

فإذا خاف ألا ينال ما أراده قهر الخلق كلهم ، وقد علم أسباب القهر أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم ، أو بخوف فى قلوبهم منه ، لما يرون من عِزِّه ، ونفاذ قوله وأمره ، فلما فهمت النفس أن نوال اللذات والشهوات ، التى هى النفس ، علمتها فى أخذ قلوب الناس ، إما بمحبة مكتسبة ، أو بتزيُّن

عندهم ومدحة ، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم ، وإما بعمل يخافونك عليه ، أحببت العز ، واشتهيته وطلبته .

فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال الشهوة واللذة ، التى فى نفسك ، حتى تظفر به ، فما ظفرت به فقد سمنت[1] عليه ، وفرحت وبَطرت وأشرت ، وما لم تظفر به ، طلبت العز ، وهى المتعة ؛ لتقهر الناس ، وتأخذ بقلوبهم ، حتى لا ترد فى أمر شئته ، أو هويته وأردته .

ثمرة الهوى

قال له قائل : فما ثمرة هذا الهوى ؟

قال : ثمرته أن يدعوك إلى أن تدعى الربوبية ، فمن هاهنا ادعى فرعون الربوبية ، حتى يكون نافذ القول فى شهواته ومناه ، جائز الأمر ، دعاه ذلك إلى أن قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] . هذه ثمرته .

---

(١) السمن : نقيض الهزال والسمين خلاف المهزول « لسان العرب » .

(٢) سورة النازعات – من الآية رقم ٢٤ .

ومن هاهنا ضاق الأمر بنمرود ، حتى احتال للقعود فى التابوت ؛ ليطير به إلى الخالق الأعلى ، زعم أنه يحارب[1] إله السماء لم يحتمل للضيق الذى حل به من قوة شهوته ، وإرادة إنفاذ مناه ، أن يسمح يذكر أحد غيره يقدر على شيء .

فأراد أن يطمس هذا الذكر ، فأرى أهل مملكته أنه حاربه فقتله ، بما رجع إليه من السهم المدمى .

هذا ثمرة الهوى الذى يهوى بك إلى قضاء الشهوات ، ودرك ما هو من جنسه ، فاحذروه ، فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية ، ترمى بك فى أودية المهالك ، والمؤمن أنقذه الله تعالى بالمعرفة من أن يدعى الربوبية ، أو يقصد لمحاربته ؛ لأن نفسه قد أيقنت فأيست عن هذا المعنى ، ولكن تطلب ما دون ذلك فى أموره ، فليس هذا له بحقيق ولا خليق .

فقد حصل من جميع ما وصفنا إلى هذه الغاية أن ظلمة هذه النفس الشهوانية قد استولت على القلب ، حتى عجز

---

(١) فى الأصل : « زعم أنى أحارب » .

عن حفظ الحدود ، وألا تنهى عما زجرت عنه ، وإيثار ما أمرت به ، وعن أداء الحقوق ، وعن القيام بشكر إلٰهك فحالت تلك الظلمة عن رؤية الوعد والوعيد ، وعن رؤية ربوبيته الظاهرة عليك ، وقدرته النافذة فيك ، وفى الأشياء كلها ، فافترق الناس فى هذا الخطب العظيم فرقتين :

فمنهم من أقبل على الحمية ، ورفض الشهوات ، وآثر التنغيص على جميع لذات النفس ، حتى ذل له وانقمع ، فقوى على وثاقه ، ثم قوى على قطعه فقطعه ، فأشرقت شمس معرفته من قلبه ، وهو النور الذى فيه ، فأضاء كل شىء ، رأى بذلك النور الربوبية الظاهرة ، والقدرة النافذة ، والسلطان القاهر للأشياء ، وجرى الأشياء كلها مشيئاته. وإراداته فاستقام ، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به ، وتهوى هكذا وهكذا ، عن مشيئات ربه ، وما استنار من قدرته النافذة ، وربوبيته الظاهرة .

ومنهم من ضعف عن هذه الأمور ، لم يقدر على رفض الشهوات ، وقطع الهوى ، فما زال مفكرًا فى قدرته ، ومعتبرًا أمور الله – عز وجل – بقلب فارغ ، يريد الخير ، مقبل على الله تعالى بمجهوده ، فكان يزداد بذلك كل يوم يقينًا ،

وقوة نور فى تلك المعرفة ، حتى غلب نور المعرفة ظلمة الهوى ، فحرقه ومزقه وبدده ، فاستكان لربه فى أموره .

ومنهم من كان هكذا فى جهد وطلب ، فأدركته رحمة الله تعالى ، فجذب قلبه جذبة إليه ، فصار من الله بمحل ومكان ، بقطع الهوى ، فصار دَكًّا ، واستنار القلب بما فيه ، وذاقت النفس من حلاوة قرب الله عز وجل ما لهيت به عن جميع شهوات الدنيا ، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور ، درك ما نال من قرب الله عز وجل ، فنجا من هذا ، ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم،وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(تم الكتاب بحمد الله ومنّه)



المصادر والمراجع

- الحنبلى : العارف بالله عبد الكريم بن إبراهيم الجبيلى

- مراتب الوجود - ط مكتبة الجندى بمصر .

- الحسينى : عبد المجيد هاشم وكيل شيخ الأزهر

- أصول الحديث النبوى - ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ .

- الحسينى : الدكتور عبد المحسن

- مقدمة كتاب « حقيقة الآدمية » للحكيم الترمذى ، نشر مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، الجزء الثالث ١٩٤٦ .

- المعرفة عند الحكيم الترمذى - ط القاهرة ١٩٦٨ .

- الحكيم الترمذى : أبو عبد الله بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ

- أبواب فى صفة العلم - محفوظ بمعهد المخطوطات رقم ١٠٤ .

- إثبات العقل - مخطوط ولى الدين رقم ٧٧٠ .

- الاحتياطات - مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ .

- آداب المريدين وبيان الكسب - تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة - ط السعادة بمصر .

- الأكياس والمفترين – مخطوط معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤ . تم تحقيقه بمعرفتنا .
- الأمثال من القرآن والسنة – تحقيق على محمد البجاوى – ط دار نهضة مصر .
- بدو شأن أبى عبد الله – مطبوع ضمن ختم الأولياء .
- بيان العلم – مخطوط .
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحقيق الدكتور نقولا هير – ط عيسى البابى الحلبى ١٩٥٨ مصر .
- تحصيل نظائر القرآن – تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان – ط المساعدة ١٣٩٠هـ .
- الحج وأسراره – تحقيق الأستاذ حسنى زيدان-ط دار السعادة بمصر .
- حقيقة الآدمية – ط مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية-مجلد سنة ١٩٤٦ .
- ختم الأولياء – تحقيق الدكتور عثمان إسماعيل يحيى-ط المطبعة الكاثوليكية ببيروت .
- خمس رسائل للحكيم الترمذى – تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة – ط مجلة أصول الدين بالقاهرة المجلد الاول .
- الرد على الرافضة – مخطوط
- الرد على المعطلة – مخطوط بمكتبة الإسكندرية رقم ١٤٥ .

- شفاء العلل - مخطوط رقم ٧٧٠ ولى الدين
-- الصلاة ومقاصدها - تحقيق الأستاذ حسنى زيدان - ط القاهرة ١٩٦٥ .
- علم الأولياء - تحقيق الدكتور سامى نصر لطف-ط مكتبة الحرية ١٩٨٣م .
- العلل - مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٥ .
- علل العبادات مخطوط رقم ٧٧٠ .
- غرس العارفين - مخطوط معهد المخطوطات العربية .
- غور الأمور - مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٥٠١٨ .
- الفروق ومنع الترادف - مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ .
- فى خلق هذا الأدمى - مخطوط بمعهد لمخطوطات رقم ١٥٤ .
- كيفية السلوك إلى رب العالمين - مخطوط رقم ٢٥٣ بخزانة تطوان المغرب .
- مكر النفس - تحقيق الدكتور بركة ضمن كتاب فى التصوف والأخلاق: دراسات ونصوص .
- منازل القربة - مخطوط دار الكتب رقم ٧٧٠ .
- منازل العباد من العبادة - تحقيق الدكتور أحمد السايح - ط المكتب الثقافى ١٩٨٩م .
- المنهيات
تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول - ط دار الكتب

العلمية بيروت ١٤٠٤هـ
- المنهيات تحقيق محمد عثمان الحشت - ط مكتبة القرآن بمصر ١٩٨٦ .
- نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول - تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور السيد الجبيلى .
- **الحكيم : الدكتورة سعاد الحكيم**
- المعجم الصوفى - ط المؤسسة الجامعية بيروت ١٠٤١هـ .
- **حلمى : الدكتور محمد مصطفى حلمى .**
- الحياة الروحية فى الإسلام - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .
- **الحميدى : الحافظ أبو بكر عبد الله الحميدى**
- المسند - الطبعة الأولى-نشر المحلى الأعلى بالهند .
الخراز : الطريق إلى الله أو كتاب الصدق - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود-ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٥م .
- **الخطيب البغدادى: الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ٤٦٣هـ**
- الكفاية فى علم الرواية - ط دار الكتب الحديثة .
- تاريخ بغداد - ط الخانجى ١٣٤٩هـ .
- **الخطيب : الأستاذ عبد الكريم الخطيب**

نشأة التصوف - ط مؤسسة الشرق للطباعة ١٣٨٠هـ . ط دار المعارف ١٩٧٧ .
- **النووى : محيى الدين النووى الشافعى**
- الأذكار
ط الحلبى ١٣٤٨هـ .
- رياض الصالحين
ط القاهرة .
- **الهجويرى : على بن عثمان الجلابى الغزنوى توفى سنة ٤٦٩هـ**
- كشف المحجوب - تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- **الهروى : أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى**
- منازل السائرين إلى الحق عز شأنه - ط الحلبى بالقاهرة ١٣٨١هـ .
- **هلال : الاستاذ محمد أمين هلال**
- منهج التصوف الإسلامى فى تربية النفس - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٢هـ .
- **الهندى : العلامة علاء الدين على المنفى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى ٩٧٥هـ .**
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال - ط مؤسسة الرسالة ١٣٩٩ .

- **الهيثمى : الحافظ نور الدين على بن أبى بكر ٨٠٧هـ**
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - ط دار الكتاب العربى
- مورد الظمآن إلى زوائد ابن حبان-ط السلفية .
- **اليافعى : أبو عبد الله اليافعى**
- نشر المحاسن الغالية - ط الحلبى .

* * *

الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع

٩٢/٧٨٣٨

I.S.B.N

977-270-078-2

تجهيزات أوفست

جهاد

٢٢ش شارع سنان - الزيتون - القاهرة .

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

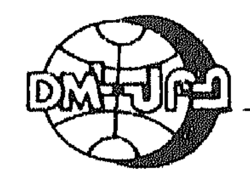
هذا الكتاب

إنَّ أدب النفس ضرورى لِمَن أراد أن يتحلَّى بمكارم الأخلاق – بأخلاق القرآن الكريم ، والتأسِّى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكتاب دعوة إلى تهذيب النفس الإنسانية وإصلاح شأنها ، والعُروج بها إلى مراق الفلاح ، وقد عالج فيه « الحكيم الترمذى » قضايا النفس الإنسانية ، وتَتَبَّعَ كل شىء فيها تَتَبُّعَ العالم الخبير بأخصِّ خصائصها .

إنه كتاب نفيس ، يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدمه للقارئ المسلم فى الوطن العربى والعالم الإسلامى .

الناشر



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً دار شادو - ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL MASRIAH AL LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
26 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O Box 2022 Cairo Egypt PHONE 3936743 3923525 FAX 3909618 CABLE DARSHADO